مؤلف معتمد وفق البرنامج الجديد للغة العربية
من لدن وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي
قطاع التربية الوطنية

رجوع إلى الطفولة

مكتبة الأدب المغربي

ليلى أبو زيد

شركة النشر و التوزيع المدارس
الدار البيضاء

ليلى أبوزيد

رجوع إلى الطفولة

شركة النشر والتوزيع - المدارس -
12 شارع الحسن الثاني - الدار البيضاء -

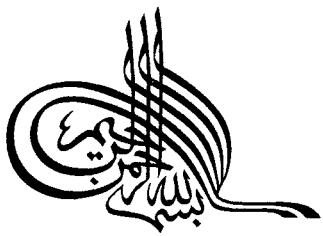

جميع الحقوق محفوظة للناشر
تم التصفيف الإلكتروني والتصميم للكتاب
بشركة النشر والتوزيع - المدارس -
12 شارع الحسن الثاني - الدار البيضاء
الهاتف : 22-15-34 / 22-25-22

الطبعة الثامنة : 2007/1428
رقم الإيداع القانوني : 2000/1156
ردمك : 9954-403-01-9

المقدمة

كانت السيرة الذاتية في المغرب إلى فترة وجيزة مستهجنة لأن الأدب عند العرب هو الشاعرية والخيال، بينما السيرة الذاتية واقعية اللغة والموضوع، ومن ثم فهي في متناول الجميع ما دام بمستطاع الجميع أن يدون حياته وقد فعل ذلك رجال دولة ومغنون. زد على ذلك أن كاتب السيرة الذاتية تنطبق عليه مقولة: «مادح نفسه ومزكيها» مع ماتنطوي عليه من دلالات مشينة: الأنانية بدل الإيثار، الفردية بدل روح الجماعة، الغطرسة بدل التواضع... لذلك نجد العربي في المناسبات الرسمية، يتحدث عن نفسه في صيغة الجمع حتى يتحاشى قول أنا، والحالة أن كاتب السيرة الذاتية لاينفك يقول أنا.

أهم من ذلك أن حياة الفرد في الثقافة الإسلامية عورة والستر قيمة أساسية كما هو واضح في العبارة الدارجة: «الله يستر عليك!» وفي العبارة الفصيحة الأخرى: «الله أمر بالستر» أي ستر ماهو عيب وعار. ومن ثم أهمية الحجاب الذي يطلق على الثوب الذي يحجب جسد المرأة وعلى الستار الذي يحجب المساكن الخاصة، كما في الآية: «كلموهن من وراء حجاب» التي تحيل على نساء النبي ﷺ وكما في الآية الأخرى: «ومن بيننا وبينك حجاب».

ولفظ «محصنة» يطلق على المدينة الكامنة داخل الأصوار، ويطلق على المرأة العفيفة، المتزوجة، ويعني ما لا يوصل إليه. وتظهر أهمية الحَجْب بوضوح في العمارة العربية الإسلامية حيث الصحن والعرسة في الداخل والنوافذ تفتح على وسط الدار. في الأربعينيات سجل رجل في مدينة صفرو، دعوى على جاره لمنعه من بناء طابق علوي. والأغرب من ذلك أن القاضي حكم له بحجة أن الجار إذا مابنى

طابقه العلوي سوف يشرف على وسط دار الرجل ويطلع على عورتها. والحال أن السيرة الذاتية تسمح للحي كله بالإشراف على وسط الدار وكشف عورتها. وهذا ماعبر عنه محمود تيمور بقوله: «السيرة الذاتية ليس لها مستقبل في البلاد العربية لأن المجتمع العربي مجتمع تقليدي» ولذلك فهي عندنا جنس دخيل بامتياز.

ورغم أن التهامي الوزاني نشر «الزاوية» في الأربعينيات إلا أن ما عرف بين الناس من سير ذاتية مغربية في البدايات كان مكتوبا بلغة أجنبية مثل «La boîte à merveilles» التي كتبها أحمد الصفريوي باللغة الفرنسية ، وما يعرف بـ :

«Paul Bowl's Moroccan autobiographies» التي تشمل سير العربي العياشي ومحمد المرابط، التي نشرها «بول بولز» بلغة أجنبية أخرى هي الإنجليزية. ولعل ثاني أشهر سيرة ذاتية مكتوبة بالعربية، هي «في الطفولة» لعبد المجيد بن جلون التي يدور معظم أحداثها في منشيستر.

وهكذا كانت كتابة سيرتي الذاتية غير واردة لأنني فوق هذا وذاك، امرأة في مجتمع ظلت المرأة فيه تاريخيا ولأمد طويل مستبعدة وساكتة، فضلا عن أن تقوم بتعرية ذاتها بالكلام عن خصوصيتها. عندما كتبت أول مقال في أواخر الستينيات لم تكن عندي الجرأة حتى على توقيعه باسمي الحقيقي. وعندما كتبت أول رواية تركت بلدة البطلة بدون إسم لأنها بلدتي. بعبارة أخرى كان علي أن أنتظر سنوات طويلة قبل أن أجرؤ على كتابة سيرتي الذاتية. وحتى عندما فعلت ذلك لم أفعله من تلقاء نفسي ولكن لأن الأستاذة إليزابيث فرنيا، الخبيرة الأمريكية المعروفة في شؤون الشرق الأوسط، طلبته مني، بالإضافة إلى أنه موجه لجمهور أجنبي وأنه يمنحني الفرصة لتصحيح مايمكن

تصحيحه من أفكار مسبقة عن الإسلام والمرأة المسلمة.

كنت أريد أن أقول: «نعم أنا امرأة مسلمة وأستطيع حمل القلم والتعبير عن رأيي في واقع بلادي.» لاسيما وأن ترجمة «عام الفيل» كانت قد بدأت تفعل ذلك كما قال مايكل هول من جامعة ملبورن في أستراليا:

> الشيخ والنص في «عام الفيل» يشكلان تناقضا صارخا مع الصور الكالحة لـ «آيات الله» المجانين والأصوليين المتطرفين التي تزخر بها وسائل الإعلام الغربية والخطاب الأكاديمي الغربي على السواء (...) وفي العديد من المراجع عبر النص تتأكد صورة إيجابية للإسلام كقوة لإحلال العدالة الإجتماعية والتحرر. والكاتبة لم تخطط لذلك بالطبع، تصديا للأحكام الغربية المسبقة على الإسلام، لأنها كتبت روايتها باللغة العربية لجمهور عربي إسلامي لايشاطر الغرب أفكاره المسبقة وتصوراته الخاطئة عن الدين والثقافة الإسلاميين. ولكن عندما ترجم النص إلى الإنجليزية شكل تحديا مباشرا للخطاب الغربي عن الإسلام، مما يطرح السؤال حول دور وقيمة الترجمة في إطار نظرية مابعد الإستعمار.

وكانت قارئة أمريكية قد قالت لي : «كنت أظن أن المغرب هو مغرب بول بولز» أي المغرب البالي أو ما أسماه الأستاذ سعيد علوش «مغرب ماقبل 1912».

لكل هذه الأسباب كتبت «رجوع إلى الطفولة». كانت إليزابيث فرنيا قد طلبت مني نصا يتراوح بين 15 و 30 صفحة لنشرها ضمن أنطولوجية عن أدب الطفولة في الشرق الأوسط. ولم أتصور أن يكون

في طفولتي مايمكنني به ملأ حتى العدد الأدنى من الصفحات المطلوبة، ولكن عندما شرعت في الكتابة بدأت تتداعى علي الذكريات. واستمرت العملية شهرين كتبت خلالهما من الصفحات مايشكل كتابا.

ورجعت إليها فوجدت بدهشة شديدة أنها قيمة وأن علي أن أنشرها بالعربية أيضا فكلمت على الفور ناشرا لبنانيا قال لي: «ليتها كانت مذكرات بريجيت باردو!» وأكد رأيي السابق، أنني ماكنت لأكتب هذه السيرة الذاتية لو كنت سأتوجه بها إلى القارئ العربي. وكان هناك مشكل آخر. لقد كتبتها لقارئ أجنبي فلم تتدخل عملية الرقابة الذاتية وجاءت الكتابة صريحة وحادة. وكنت أشفق من ردود الفعل، لاسيما ردود فعل أسرتي فوضعت المخطوط في درج ونسيته عامين كاملين. ولكن عندما نشر في سنة 1993 تلقاه الجميع بالترحيب بمن فيهم الأسرة والقراء والنقاد.

وصنفه عبد المجيد شكير سيرة ذاتية روائية لأنه «ينسف قاعدة التطابق بين المؤلف والسارد، إلى جانب توفره على المكونات السردية الأخرى كتعدد الأصوات والتفضيء وتداخل الأزمنة.» وقال عنه عبد العزيز جدير: «رجوع إلى الطفولة فيه نقد للمؤسسة الرسمية والمعارضة على السواء، بجرأة لانجدها عند الكتاب المنضوين تحت لواء أحزاب المعارضة» وقال: «يمكن اعتبار ليلى أبوزيد كاتبة المرأة بامتياز، فرواتها نساء وشخوصها النسائية أصوات (...) رجوع إلى الطفولة تعطي مصداقية للتاريخ الشفوي الذي تحكيه نساء أميات».

ومنذ سنة 1993 فتح الباب في المغرب على مصراعية للسيرة الذاتية فنشر منها عدد كبير بأقلام نساء ورجال.

ليلى أبوزيد

ما من حياة وما من راوية لأية
قصة إلا وتوفر معلومات هامة
وتبصرا في وعي جماعي أوسع.

ليفي ستراوس

القصيبة

توقفت الحافلة في الطريق الرابطة بين فاس ومراكش عند علامة القصيبة، على حافة منعرج جانبي صاعد في الأطلس المتوسط. ونزلنا وأنزل المُشَحّم متاعنا ثم انطلقت الحافلة بسرعة. وعبرنا الطريق وجلست أمي جنب العلامة، وأجلست نعيمة في حجرها وفاتحة بجانبها وخالي الأصغر ينقل المتاع ويضعه أمامها.

كنا عائدين من سفرة أخرى إلى بلدة أمي، التي كانت تعود منها مثقلة بطناجر النحاس والجفان وقصع الطين ومجامر الطين ومكانس الدوم القصيرة، وتقول عنها حين تكون على سجيتها: «أشتري ماينفعني وعند الحاجة يحمر وجهي»، لأنها كانت مقتنعة بأنها تسكن في الثلث الخالي، ولكنها عندما كانت تغضب كانت تلعن رأيها وتقول: «النساء تشتري الذهب وأنا أشتري الشَّقف». وجاءت شاحنة من الاتجاه الآخر وانعرجت في طريق القصيبة، فأوقفها خالي واتجه نحوها وأمي توصيه:

- ها! قل له أنا صهر السي أحمد بوزيد.

وأوقف السائق الشاحنة وأطل من النافذة وقال:

- ليس لدي سوى مكان لشخص. الشاحنة محملة.

- لن يركب سواي. أريد أن أذهب إلى القصيبة لأخبر صهري السي أحمد بوزيد بوصولنا.

- إصعد.

ولف وصعد بجانبه، وانطلقت الشاحنة وتغير صوت محركها، ثم نَأى وعم الصمت، صمت جبلي يبرزه ثغاء أو نداء أمازيغي قصي يرد على نداء. وتركت أمي وأختيَّ منتعشة بهواء الجبل، وسرحت بين الأعشاب البرية وسيقان «البويال» تلك البقلة التي تنبت وحدها، والتي

تنتهي بثمرة صفراء ناعمة تشبه القنبيط، وتلتف كعرناس الذرة في ورقها.

كنا ثلاث طفلات ذلك اليوم عند تلك العلامة، ولو عاشت خديجة لكنا أربعة. كنا قد أقمنا في الرباط ثمانية أشهر سمح الفرنسيون لوالدي فيها بالالتحاق بمعهد الدراسات العليا، الذي كان في البناية ذات القبة الخضراء التي أصبحت الآن كلية الآداب.

سكنا قبالة مستشفى مولاي يوسف، أحد بيتين أرضيين في عمارة جديدة، بينما كان يسكن البيت الآخر جميعة وزوجها، وكانا أسودين كالفحم، وكانا يتقاسمان بيتهما مع أسرة فرنسية معدمة، ربها حارس في المقبرة المسيحية القريبة. وكنت كلما أرسلتني أمي إلى جميعة، أجد تلك الفرنسية في الفناء على كرسي أمام غرفتها ترفو الجوارب، وأمامها طبق الخياطة على مائدة. لاأذكرها في أية صورة أخرى. أما جميعة فصورتها صورة امرأة فارعة وشديدة السواد، تلبس القميص و «الدفينة» وتعصب رأسها بمنديل.

وفي ذلك البيت بتلك العمارة، ماتت خديجة من الحصبة وولدت نعيمة. ماتت خديجة قبل أن تتعلم الكلام، فأصبحنا وأصبحت أمي تلبس الأبيض وتحنو علينا. ولعل خديجة كانت في عامها الثاني، لأنها كانت قد ضاعت، وعندما سألها الشرطي:

ـ من أنت ؟

قالت :

ـ أنا.

ـ ما اسم أبيك ؟

قالت :

ـ بّا.

أيامها دخل أبي ووجد أمي تبكي فسألها :

ما بك ؟

قالت :

ـ جميعة. أنا ماتت لي البنت وهي تستعمل أحمر الخدود.

فقال :

ـ ولنفرض أنها استعملته. من سيراه؟

وبقيت أمي كلما حكت ذلك تبتسم وتقول: «كانت رحمها الله أو ذكرها بالخير طيبة. وقفت بجانبي في موت خديجة إلا أنها استعملت أحمر الخدود».

هل فكرت في خديجة ذلك اليوم ونحن عند علامة القصيبة؟ أغلب الظن أنني فعلت، فقد كان من عادتي أن أقول: «لو لم تمت خديجة لكانت معنا الآن»، «لو لم تمت خديجة لكان عمرها كذا الآن». لم أنسها. إلى الآن مازلت كلما مررت بباب مقبرة العلو حيث دفناها إلى يمين الباب، أتفحصه وأقول: «رحمك الله ياخديجة». مرة كنت مع ابنتي نعيمة فخفضت سرعة السيارة وقلت لهما :

ـ هل رأيتما ذلك الباب؟ إلى يمينه يوجد قبر أخت لنا كان اسمها خديجة. ماتت في نفس العام الذي ولدت فيه أمكما. إسألا الله أن يرحمها.

فقالت سارة :

ـ لماذا ؟

ـ لأنه يستجيب للأطفال.

لماذا ؟

- لأنه يحبهم.

وإذا كنت أذكرها الآن فلابد أن أكون قد ذكرتها ذلك اليوم عند تلك العلامة، حين كان العام الأول لم يمض بعد على موتها.

سمعنا هدير الحافلة يقترب ثم وصلت وانعرجت في طريق القصيبة وتوقفت. ونزل المُشَحِّم واتجه نحو أمي لا يلوي على شيء، ثم قرفص بجانبها وقال لها شيئا فبدأت تضرب فخذيها وتفرك يديها وتقول بنبرة مأساوية :

- خلا داري! خلا داري!

وقال الرجل :

- انتظري هنا. سنوصل البوسطة إلى القصيبة ونعود حالا.

وصعد من الباب الخلفي وانطلقت الحافلة فقالت لي أمي:

- لقد وضع النصارى أباك في السجن. لا لشيء قبيح ولكن لأنه وطني. وطني يعني أنه يريد أن يخرج النصارى من بلادنا وهو شيء مشرف.

ولكن نحيبها أفجعني أكثر من سجن أبي، وكان من الصعب عدم اعتبار السجن قبيحا وقد جعلها تنوح وتئن.

كان لدينا في القصيبة سجناء يقضون حاجيات البيت، وكانوا قد سجنوا في جنح، لأنهم ضربوا أو جرحوا أحدا، أو لأنهم سرقوا شيئا. واحد فقط سجن لأنه لم يحي الحاكم الفرنسي تحية عسكرية، ثم قابله في الطريق وهو مايزال سجينا فوضع لوح العجين على الأرض وحياه بكلتا يديه فقال له المراقب:

تحيتان ؟

قال :

- واحدة لك والأخرى للفرس.

وكانت أمي كلما سمعت تلك الحكاية تقول:

- قال المسكين لنفسه: «إن كان قد سجنني لأنني لم أحيه فهو قادر أن يزود سجني إن لم أحي فرسه» حكم القوي على الضعيف، حكم الغاب.

والآن تقول إن السجن مشرف. ورجع الرجل فركبنا الحافلة وذهبنا معه في الاتجاه الذي جئنا منه إلى زاوية الشيخ، وأخذنا إلى بيته. ولكننا لم نلبث أن ركبنا حافلة أخرى إلى بني ملال حيث وجدنا بيت جدي غاصا بالزوار. دخلنا فارتفع العويل وبدأت جدتي تضرب صدرها، ثم جاء خالي يحمل شمعدانا فقالت له أمي:

- ماهذا ؟

- هذا هو كل ماأبقوه لك. دخلت البيت فلم أجد فيه غير هذا. نظرت وراء باب فوجدته. كان وراء الباب فلم يروه.

- من؟

- حموك وابنه المعطي. أخذا كل شيء.

- ماذا تقول؟

- ماتسمعين.

كان في بيت جدي لأبي ملاحف وحنابل بدوية، وحصر وقدور طين وقلال وصناديق ومناول منصوبة في الغرف، وجدي في الفناء على الدوام وأمامه صينية الشاي.

وكان في بيت جدي لأمي موائد ومطارف صوف، ووسائد مخملية

مزينة بحواشي الحرير والأهذاب، وستائر لينة، نحيلة وأسرة وطوارم من خشب مخرم، ومخازن وخزائن ورفوف منقوشة، عليها زبديات من خزف فاسي عتيق.

وكان أهل أمي يسخرون من أهل أبي ويقولون: «بدون لحم لايأكلون»، «قالب سكر في اليوم»، «همهم في بطونهم وفروجهم».

وكان أهل أبي يسخرون من أهل أمي ويقولون: «المديني، الزليج والرخام والشح والتقتير. كل شيء عندهم مصغر، البويضة والخبيزة و... أسيدي ناكل ونشرب والرجا ف الله».

كان جدي يقول ذلك ويسوق حكايته عن الفاسي وهو يرتفق المسند في الفناء:

- ذهبنا إلى فاس نتسوق، واشترينا سلعتنا من الفاسي فدعانا للغذاء وذهبنا. وصلنا. إيوا الباب باب، والدار، الزليج حتى السقف، والنقش والسواري ومطارف صوف يحتاج الضيف لمن ينحني له ليصعد إليها، والقطيفة والمساند المطرزة. صفق وجاءت خادم سوداء بطست، ثم جاءت بالطعام، وإذا هو سلطات وصحن فيه شيء من الكفتة. وبعدما خرجنا مررنا بجزار واشتريت لك أسيدي رجل خروف، وذهبنا إلى الفندق وقطعتها وشككتها في السفافيد وأوقدنا النار وشوينا اللحم وتغذينا.

ثاني شيء أذكره من ذلك البيت بعد الزحام والبكاء كبورة تسب أمي. كنت قد سمعت أن جدتي كانت تريد أن تزوجها لأبي، ولما لم تنجح الخطة تزوجت صديقه وهو نجار يضرب على العود، فبقيت تظهر لأمي المودة إلى أن بان وجهها الحقيقي ذلك اليوم، فبدأت أمي تقول:

- أستاهل، أنا التي علمتها تخليل الفلفل وطبخ الدجاج.

بعد ذلك أذكر غرفة مغلقة علينا وامرأة أخرى عريضة وطويلة تضرب على شباك النافذة المسبوك، فنحن وأمنا عند سياج شوكي أمام بيت جدي، وابنة عمي عائشة التي كانت تلعب وتتشاجر معي ترمقنا من عتبة الدار وتأكل قطعة بطيخ ثم ترمي بالقشرة في السياج.

القصيبة تصغير للقصبة. إسم عربي لقرية أمازيغية في قلب الأطلس المتوسط، يصل المرء إليها من سهول تادلة صعودا في طريق وعر، حافل، على مسافة سبع كيلومترات، بالإلتواءات وبيوت الطين وأشجار البلوط والدفلى التي تنبت على ضفتي نهر صغير، ثم يتفرع عن طريق آخر يفضي إلى المركز، بينما يقود الطريق الرئيسي إلي حائط أبيض قصير في جنب الطريق، يعلن عن المنطقة الإدارية التي يسكن الفرنسيون بيوتها الوجيهة ويعملون في مكاتبها، بينما تسكن عائلات الجنود المغاربة ثُكْنة داخل سور أبيض بثلاثة أبواب، بيوته بسيطة ومتشابهة تنتهي ببيتين أوسع وأفضل، يسكنهما الموظفان المغربيان الوحيدان في الإدارة. وفي أحد ذينك البيتين كنا نسكن. وبعد الثكنة، الإدارة فبيوت الفرنسيين في واجهة.

تقع القرية على بعد كيلومترين من المنطقة الإدارية، وراء غابة صنوبر وبستان الإدارة والمدرسة والمستوصف، وإلى هناك ذهب خالي ذلك اليوم ليخبر أبي الذي كان ترجمانا بين الأمازيغ والفرنسيين بوصولنا. لاأعرف كيف تعلم الأمازيغية، فقد كان من بني ملال وهي مدينة عربية يقال إن اسمها تحريف لبني هلال، القبيلة العربية المعروفة التي نزحت إلى شمال إفريقيا، والمكونة من بدو على فطرة شديدة، هم الذين يقصدهم ابن خلدون بقولته الشهيرة: «إذا عربت خربت».

. وكان من أسرة مرموقة من حيث الوضع الاجتماعي لا من حيث الغنى، وإن كان الإسراف البدوي الذي يجعل جاه المرء فيما يستهلكه، لا في الإطار الذي يعيش فيه، وطبيعة حياته القائمة على التحرك المستمر، لايسمحان له بتنمية أي ثراء عمراني.

كان جدي تاجرا كثير السفر، قليل المال، ولكنه كان يملك بيته وهو شيء غير مألوف. وكانت له زوجتان أصغرهما وهي أم أبي أمازيغية فاتنة، رجع بها من إحدى سفراته. وجدتها تتكلم العربية بلهجة محلية، ولم أجد فيها من أصلها الأمازيغي سوى البياض والوشم، ولذلك لايمكن أن تكون هي التي علمت أبي الأمازيغية.

كان قد دخل المدرسة بأمر المخزن. الوحيد في أسرته الذي دخل المدرسة. تروي أمي ذلك عن جدتي فتقول:

- جاء المقدم وأخذه. كان أكبر أولادها الثلاثة وأشبههم بها وأحبهم إليها، فأقامت مناحة. كان يقال إن النصارى يعلمون أولادنا لغتهم وينصرونهم. وأشارت عليها النساء بإعطائه عشبة تصيب بالحمى لا أذكر اسمها.

وسألتها.

- وماذا كان يقع لمن لا ينفذ الأمر؟

- كان يذهب إلى السجن. الحاصل، أعطته العشبة وحملته على ظهرها ليعرق ويحمر وجهه، ولكنهم جاؤوا وأخذوه.

كان نجيبا، ولكنهم لم يسمحوا له إلا بالدراسة حتى الشهادة الابتدائية، ثم عينوه ترجمانا في مولاي علي الشريف، وهناك عرف نجار الإدارة، رجلا من صفرو، وأعجب بطريقة عيش المدينيات، فطلب منه

أن يزوجه من بلدته، فوجد له أخت زوجته، أمي، وهو شيء خارق للعادة، فقد كانت بلدتها ذات تراث أندلسي، وكان يطغى على أهلها شأن الأندلسيين شعور حاد بالشوفينية والنفور من الأجنبي، فلم تكن تزوج بناتها للأجانب، ناهيك إن كانوا أمازيغا أو بدوا. كان والدي متعلما وموظفا ولكنه كان أجنبيا وبدويا، وإذا كانوا قد قبلوه فذلك لأنها كانت مطلقة بطفلة، فكانت عندما تقول: «الله ياخذ الحق ف اللي كان حيلة وسبب» تقصد زوج خالتي.

تزوجها وعاد بها إلى مولاي علي الشريف، ولكنهما لم يلبثا أن نقلا إلى القصيبة. «كان مستقيما في مولاي علي الشريف، أرض الذكر والبركة» كما تقول «حيث لاترى المرأة في الشوارع، وحيث إذا خرجت ثار العَجَاج خلفها كالسيارة، على حد قوله، من طول حجابها، كما في الحجاز، وجاء إلى هذا الماخور الذي لا دين ولا ملة ولا إسلام».

كان بيتنا من أربع غرف وفناء تغطيه كرمة عنب تقول أمي إن أباها هو الذي غرسها وقال: «حتى إذا ما أكل منها أحد قال رحم الله الغراس».

وكان في مدخله حوضان ينمو فيهما النعناع، وفي نهايته حوض ماء ملؤوا منه الدلاء لتطهير عتبة الدار يوم عادت أمي من بلدتها رفقة أبيها ووجدت بها سحرا مدفونا.

كانت تغسل الدار وهي منكبة، تدفع الماء بمكنسة الدوم القصيرة. ووصلت إلى عتبة الدار فوجدت بلاطها مكسرا. وبقيت تكنس والتراب يخرج، ثم بدأت تحفر بمقبض المكنسة فوجدت تحت التراب قصبا مصفوفا، وتحته عظم كتف مكتوب بالعبرية، فنادت أباها

وأرسلت السجين الأمازيغي الذي كانت الإدارة تكلفه بقضاء حاجاتنا لينادي أبي. وقامت الدنيا وقعدت وأمي تبكي. وأخذ جدي العظم ونزل به إلى القرية ليُقرئه، فقال له الحبر إنه معمول للتفريق بين فاطمة بنت فاطمة وأحمد بن خديجة.

كان يوما مشؤوما شعرت فيه بالانقباض والخوف. لاأعرف كم كان عمري، ولكنني أذكر ذلك العظم المسطح بين الأيدي والحفرة والتراب والقصب، وأمي بمئزرها وأكمامها المشمرة ومنديل رأسها، تحرك يديها وتصرخ، وعمامة جدي ولحيته البيضاء القصيرة.

وهناك صورة أخرى من ذلك البيت مفعمة برائحة، صورة طائرين سوداوين كبيرين في خزانة أغلب الظن أنها تحت حوض ماء، لأن الرائحة رائحة رطوبة.

وهناك صورة غابة الصنوبر خارج سور الحصن الأبيض التي كنا نلعب فيها تحت رعاية السجين، فاتحة وخديجة وأنا جنب الغدير الذي ينبت على جنباته النعناع البري، وتعمه رائحة الصنوبر والصمغ.

وهناك صورة البساتين الصغيرة داخل سياجات الشوك الجاف كالرُّقع، أو كمناديل الأنف كما قال أستاذ الجغرافيا الفرنسي فيما بعد عن هذه القطع الأرضية في المغرب، وبداخلها بيت من الطين وبقرة مربوطة ودجاج وأشجار رمان وبرتقال أصفر بقشرة رفيعة وناعمة، طعمه مختلف عن طعم البرتقال المعروف.

وهناك صورة المدرسة في نهاية الغابة، مدرسة من فصلين بسقف من القرميد الأحمر، دخلتها وقضيت بها بضعة أشهر تعلمت فيها الأبجدية الفرنسية وتركيب الحروف.

وهناك صورة بقرة صفراء لمحتهامن نافذة الصف تلمع في ضوء النهار في مرجة خضراء، وسرحت في القدرة الغيبية التي أوجدتها. أذكر منظرها في إطار النافذة، وعمق ما انتابني من تفكير ممزوج بالغموض والانبهار.

وهناك صورة مطبوعة بالامتعاض، صورة قبعة الضباط الفرنسيين بحرفها البارز وزركشتها الذهبية البغيضة.

كان لنا في بيت داخل بستان سكناه في القرية بعدما رجعنا من الرباط، كلب حراسة اسمه ربّاح، سرقه منا بعض المتسوقين فغاب ثلاثة أشهر، ثم تحين الفرصة وتبعهم يوم السوق من بعيد إلى أن أوصلوه القرية فعاد إلينا. دفع باب البستان ودخل فهللنا وبكينا. أذكر الفرحة والتأثر مرتبطين بمنظره وهو يدخل معفرا بالتراب الأحمر، هزيلا ومنهوكا. أثر في وفاؤه واحتياله على سارقيه.

وهناك صورة أخرى لعلها الأخيرة، قفة انزلقت إلى أم الربيع وذهب بها التيار، أعلاها بطانية بيضاء منسوجة بطريقة بلد أمي، ونحن عند قنطرة تادلة نشير إليها ونتبعها بأعيننا ونقول «ذهبت! ذهبت!» وأمنا بالجلباب والنقاب تضرب ظهر يدها اليسرى بيدها اليمنى وتقول: «خلا داري مشت!» ولا أعرف ماذا كنا نفعل تحت تلك القنطرة.

وهناك صورة طرد بريدي نفتحه في فناء الدار ونخرج منه عرائس خشب بقفاطين و «منصوريات» وأحزمة ومناديل مثبتة على رؤوسها بشرائط، عيونها وأفواهها سوداء، مدورة على قماش أبيض، أرسلتها لنا جدتي بالبريد. وبعد ذلك جاءت مع جدي وخالي وخالتي وأقاموا

عندنا شهرا. أعطيتها مهلة يوم، ثم قلت لها بعدما غسلنا أيدينا من العشاء:

- يما! إحكي لنا عما جرى في صفرو.

فأحصت لنا الأعراس، وتحدثت عن كل جهاز بتفصيل، نوع أغطية المطارف وعدد الوسائد والبطانيات، ومقدار الصداق وهدايا العريس وهدايا العروس له ولأفراد أسرته المقربين ... وقالت أمي:

- هل مات أحد؟

فبدأت تذكر لها من ماتوا وتشرح ظروف موتهم وأسبابه ثم قالت:

- لقد خرج أحمد من السجن وترك البلدة.

فقالت أمي:

- لم يبق له وجه يقابل به الناس.

- بعدما خرج من السجن ذهب إلي صهره وقال له:

- لقد كتب الله علي ماعلمت، ولقد عزمت أن أغادر البلدة ولا أعرف ماينتظرني، ولا أريد أن أعاقب معي بنتكم فإن شئتم طلقتها.

فقال له:

- أنا مسلم أشهد أن لا إلاه إلا الله وأن محمدا رسول الله. لست يهوديا ولا نصرانيا ولن أقول لك: «طلق!» خذ زوجتك يابني وليصبها ما يصيبك.

فقالت أمي:

- إيوا هذا هو الرجل!

وهزت رأسها وتمطقت.

- اختار أحلى المرين. هم الغربة ولا هم الطلاق. حفظ الله منه بناتنا وبنات المسلمين!

فقلت:

- يما! إحكي عن كيف حمل الخزنة ونزل بها من الطابق العلوي وحده.

وقالت أمي:

- وأين ذهب؟

- قالوا إلى الرباط.

- زبيدة قليلة السعد مثلي. رمت بها الأقدار مثلي في الغربة.

وقلت:

- إحكي الحكاية من أولها. من ساعة كانا كالأخوين.

قالت:

- لقد حكيتها لكم مائة مرة.

قلت:

- إحكيها مرة أخرى.

- إيوا صلوا ع النبي.

قلنا:

- صلى الله عليه وسلم.

- كان أحمد ومولاي علي صديقين لايفرقهما إلا ماحرم الله. وكان مولاي علي يأتمنه على داره وماله. كانا كالأخوين. وكان غنيا بينما كان أحمد تاجرا. كانا صديقين. كانت زوجة الشريف لايراها أحد، ولكن أحمد كان يراها، فكان يدخل بيته سواء كان هو موجودا فيه أو لا. وازداد لهما أولاد وذهبت أيام وجاءت أيام. وكانت للشريف خزنة فولاذية ثقيلة يضع فيها أمواله، فكان أحمد يدخل ويعاين.

وجاء رمضان فبدآ يتعشيان ويخرجان إلى القهوة حتى السحر. وعندما عزم أحمد على الغدر جاء الشريف وقال له:

- يقال إن في فاس فرجة فيلم جديد، ولذلك لاتنتظرني الليلة في القهوة. أنا ذاهب إلى فاس.

وتعشى ثم ذهب إلى القهوة واطمأن إلى وجوده فيها وذهب إلى داره. كان يصلحها، فكان في زقاقهم (الزقاق كله لهم، أغنياء!) كان فيه عوارض من النوع المستعمل في هياكل البنائين، ودخل وقال:

- إن سأل مولاي علي عني فإنني في فاس.

وصفق الباب من الداخل ليوهمهم أنه خرج ، وخلع حذاءه وصعد إلى الغرفة التي توجد بها الخزنة، ولاذ بها حتى أطفئ الضوء في الدار، ونامت المرأة وأولادها والخادم، فأخرج الخزنة إلى الرواق وخرج إلى الزقاق، وجاء بعارضة وأدخلها ووضعها على السلم، ثم وضع الخزنة عليها وبدأ يزحلقها حتى أنزلها إلى المدخل، ولايعرف أحد كيف نقلها إلى بيته.

فقالت أمي:

- لعله أحضر عربة. لابد أنها عربة.

- عربة أو شيء. الله أعلم. أخذ الخزنة وذهب بها. كان له في بيته كراج، وتحت الكراج قبو كالمخزن، مخزن مملوء بخشب وحديد كان قد حوله من مكانه. وضع الخزنة ورمى عليها ذلك الحديد والخشب كما كان ونام.

قالت أمي:

- ومن أين يأتيه النوم؟

- ... وعندما رجع الشريف إلى بيته تسحر وصعد إلى الغرفة لينام فوجدها مفتوحة والخزنة غير موجودة. قال للمرأة:

- ماهذا؟

قالت:

ـ لاأعرف.

ووجدوا باب السطح مفتوحا. إيوا ها الأمارة الملفقة بأن اللصوص دخلوا من السطح. الشريف له ثلاثة مقربين: أخوه وخاله وصديقه. أنظري كما له من المقربين ولكنه ذهب إلى صديقه.

دقت جدتي على المائدة وقالت، تقلد أحمد:

ـ من؟

ـ قريب.

ـ ماهذه الزيارة؟ ياك لا باس؟

ـ ماثمة ما تسمع، لقد أخذوا الخزنة. مملوءة بالذهب. خمسة كيلو من الذهب (أغنياء!) ... والمال (وهذي وهذي).

ـ من يستطيع أن يفعل هذه؟ رجل بمفرده لايستطيع وأهل الدار ألم يشعروا؟ قال: «لم يشعروا.»

زوجة أحمد هي التي تحكي. سليمة النية. قالت إنه قال له: «مولاي علي». قال: «نعم». قال: «هذه لايفعلها إلا مقرب. أصدقاؤك الذين تتعامل معهم والذين أكلوا طعامك ويدخلون دارك...» تعرفها وتقولها! (قالتها جدتي تعاتب بها أحمد)... يجب أن تفتش دورهم. هذه لايفعلها إلا مقرب. نذهب إلى الشرطة وتفتش دورهم وأنا على رأسهم حتى لايقال: «استثنى صديقه». إعتقد أنهم لن يرفعوا الحديد والخشب. وذهب معه إلى الشرطة فجاءت إلى بيت الشريف وصعدت إلى السطح. لاداعي للتعرض لذلك بالتفصيل. ماعلينا. يقولون إنهم بدأوا بدار أحمد.. قال له الشريف: «وحق وحق وحق لاأفتش دارك» فقال: وحق وحق وحق لأكون أول من يفتش حتى يقال: «بدأ بدار

صاحبه» ودخلوا الغرف وفتشوا. إيوا ليست إبرة حتى ينفضوا الأشياء. دخلوا الكراج ولم يجدوا شيئا ثم لمحوا السلم فقالوا: « ننزل!» قال: « انزلوا » ونزلوا وظلوا ينظرون ثم قال أحدهم: « تعالوا نحول هذا الخشب والحديد» فقال الشريف: « إنه هنا من سنين وهو إلى السقف.» قالوا «نحوله.» سحبوا العريضة الأولى والثانية فانهار الخشب والحديد.

قالت أمي:

- رخو. لم يحكم رصه.

- ... وبانت الخزنة. «كيف؟»

قالتها جدتي ووضعت يدها على رأسها وعضت شفتها وأغمضت عينيها في تقزز، وبقيت برهة قبل أن تكمل:

قال لهم : «لاداعي لأي ضرب. سأشرح لكم كل شيء.» فأخذوه إلى دار الشريف وأراهم كيف أنجز العملية.

قلت:

- وبماذا حكموا عليه؟

قالت:

- سأصل إلى ذلك. بات في سجن صفرو وفي الصباح أخذوه إلى فاس. وقامت زوجته وقالت إن الدار كبيرة، وإنها تخاف فيها. الدار جنب النهر تحت القنطرة. قالت الخوف وهذي وهذي وأنها تريد أن تذهب لحالها إلى بيت أبيها، فذهبت وبقي هو ثلاثة أشهر قبل أن يمثل أمام المحكمة، فجاء أولاد الحلال أباها وقالوا له: « أنت رجل صالح والباشا البكاي أيضا رجل صالح. خذ من ابنتك مالا واذهب به إليه عسى أن يخفف عنه الحكم.» إن كنت حاضرة سأقول لها:

- أبوك المسكين لم يعرف السجن حتى عرفه في طريق زوجك.

وستحكي كل شيء. سليمة النية. ذهب إلى البكاي، الباشا، وقبل كتفه وقال له:

- خذ هذه البركة ياسيدي وخفف عن صهري الحكم.

- كيف؟ آخذ الرشوة على قلة الدين والسرقة وهذي وهذي. خذوه إلى السجن!

فأخذوه. كانوا في سجين فأصبحوا في سجينين. حسبي الله! حكموا عليه بثلاثة أشهر، وبقيت ابنته المسكينة يالله يالله يالله حتى خرج زوجها. وعندما خرج قال إنه لايقدر أن يلقى الشريف ولا يقدر أن يرى الناس ولايقدر أن ... فجاء صهره وقال له:

- لقد كتب الله علي ماتعلمه، ولقد عزمت أن أترك البلدة ولا أعرف ماينتظرني، ولا أريد أن أجرجر معي بنتكم في بلدان الناس فإن شئتم طلقتها.

قال:

- أنا مسلم أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ولن أقول لك: «طلق!» لست يهوديا ولا نصرانيا ولن أقول لك: «طلق!» خذ زوجتك يابني وليصبها مايصيبك.

وانتهت جدتي من حكيها وقالت:

- سوف يموت دون أن يرى تربة بلاده.

وجففت دمعها وجففنا دمعنا، وقلت مأخوذة بقوة الأحداث وجمالية السرد:

- هذي هي الحكايات التي أحبها، حكايات الناس الحقيقيين وليس حكاية الحنش الذي خرج من البالوعة وأصبح شابا جميلا، أو العروس التي غارت منها ضراتها وغرزن في رأسها الإبر فتحولت إلى حمامة. يما! إحكي حكاية هل العاشق ينام؟ إحكيها!

أثار انتباهي وأنا أكتب قصة هذا الرجل قول جدتي إنه لن يرى تربة بلده، وبقيت أتحين الفرصة حتى جاءت قريبة له تزور أمي، فأثرت الكلام عنه ثم سألتها:

- ألا يذهب إلى بلده؟

قالت:

- يذهب ولكنه يدخلها بعد المغرب ويخرج منها بعد الفجر. لا يدخلها في النهار.

كان والدي يغيب مع أصحابه ويسمح لأمي بتبادل الضيافات مع زوجاتهم، فكن يمضين وقتهن في الأكل وشرب الشاي والتطبيل والضحك والصخب، والتلميح إلى ما يفعله الرجال في لا مبالاة مصطنعة. وكانت أمي أيضا تضحك، ولكنها كانت عندما تغضب تقول:

- أنزل الله الخسارة بأبيكن وبمن لاقاني به.

كانت النخبة في تلك المنطقة على الأقل تلهو وتدع نساءها تطبل وتزغرد ثم تقول: «سياسة استعمارية لإلهاء الناس.» «الاستعمار هو الذي نظم الدعارة وأشاع الخمر.»

بدأ الاستعداد للضيافة فأفرغت الغرف من محتوياتها وغسلت الدار وصقلت الصواني وأواني الشاي. وفي اليوم الموعود بانت المائدة مسندة إلى حائط الفناء وعليها المشمع، وبجانبها الطست الفضي، عليه فوطة مطوية، وبجانبه صينيتا الشاي عليهما غطاءان خفيفان مطرزان، وبجانبهما جدتي تقص النعناع على وسادة جلوس قرب حوض الماء، وأمي في الغرفة التي تستعملها مطبخا مشمرة الأكمام والثياب، تتزر بالفوطة وتقف بين طناجر النحاس والمجامر وفي يدها مغرفة خشبية كبيرة.

ووصل الضيوف، آل فقيه القائد بن الجيلالي وهو فاسي، وزوجته الثانية لَلاَّخَدُّوجْ وهي من أبي الجعد، وكنته تيتيمة بنت القائد علي واسمها تصغير أمازيغي لفاطمة، وأمها لَلاَّ فطومة الشرقاوية وهي أيضا من أبي الجعد، والتي طلقها القائد فتزوجت تاجرا كبيرا في القرية.

دخلن يسحبن النقب وتفوح منهن العطور وأمي تقول «نهار كبير!» أدخلتهن غرفة الرجال وأخذت جلابيبهن، فبدت القفاطين والمنصوريات والأحزمة والخفاف الفاسية، وفصوص الأقراط الزمردية المخروطة والمعلقة بين حلمة الأذن والكتف، وأسورة الذهب ذات النقش الصويري، وعقود اللويسيات المنظومة في عقيق أسود.

جلسن ومسحن وجوههن بمناديلهن المطرزة، وأعدن شد مناديل رؤوسهن المزينة بالورود، ثم جاءت خالتي بالطست ووضعت المائدة، فارتفع صراخ فاتحة وقالت لَلاَّ فطومة الشرقاوية لأمي:

- ما بها؟

- إيوا أللا قالت لك تأكل مع النساء. إيوا بنت القائد!

- هاتيها! أناشدك وجه الله. هل مررتها تحت الجمل؟ هذا الاهتياج كثير. مرريها تحت الجمل وسوف ترحميني.

كان الغذاء دجاجا بالليمون المصبر والزيتون وكتف خروف مبخر وسلطة الفلفل والطماطم وسلطة الباذنجان وسلطة الخس بالسكر وماء الزهر، ثم ختم بالبرتقال المقطع في دوائر بالقرفة والسكر وماء الزهر.

استمر الأكل ساعات في صخب، وقالت لَلاَّ خدوج:

- الله يعطيك الصحة يا لَلاَّ فطومة!

فقالت أمي التي كانت تزهو عليهن بطبخها المديني:

- إيوا كلوا! أناشدكن وجه الله. إنها داركن.

ورُفعت المائدة وجاءت جدتي وتوسعت الجلسة، ووضعت صينية الشاي أمام لَلاَّ خدوج، وصينية طاقمه عن يمينها واستمر الصخب. حينئذ قالت لَلاَّ فطومة الشرقاوية لأمي:

- لَلاَّ فطومة، سمعت بعلاقة السي أحمد الجديدة؟

فقالت أمي:

- اللي لاق به.

وقالت للا خدوج وهي تضحك:

- إنها تقول: «اللي لاق به».

وقالت جدتي:

- كل الرجال كذلك. إنها لاتستطيع أن تشتكي. لاينقصها شيء ونحن دائما معها. كيف تشتكي؟ ثم إن كل الرجال سواء. لم يتزوج أحد أباه أو أخاه.

فقالت للا فطومة الشرقاوية:

- أين «التعاريج»[1]؟

وبدأ التطبيل. ورقصت تيتيمة عندما غنت أمها أغنية الموسم:

أللا وعلى بلميضي يا للا
باع الرخيص وجاب الغالي يا للا
باع الدفينا وشرى ماكينا يا للا

---

(1) طبلات صغيرة.

أللا وجات المشينا يا للا
أللا وركبنا ومشينا يا للا
أللا ومشينا لصويرة يا للا
أللا وباش تغدينا ؟ يا للا
أللا وبكيلو مطيشا يا للا
أللا حمرا وهشيشا يا للا
أللا باش تعشينا ؟ ياللا
أللا وبكيلو بطاطا يا للا
أللا بيضا عياطا أللا.

بعدها غنت:
أللا للا على بوكمية! ياوليدي
جاب الحولي مكوده بالسبنية. ياوليدي
ياليلى كلمي بوك لي. ياوليدي
ولا كلمتيه كلميه بالعجمية. ياوليدي
ثم غنت أمي وهي تضرب على الرق بأكمامها المشمرة أغنيتها:
طالبة على ربي بنية ونسميها للا فوزية
يفرح قلبي بها ويتهنا
ونقيم لكم يالحباب عشية

كانت دائما تغني تلك الأغنية وتستعمل ذلك الإسم، لأنه اسم ابنتها من زواجها الأول التي تركتها لأمها وماتت في غيابها من الحصبة.

بدت مع أولائك النساء في مظهر آخر، وكنت لاأراها إلا باكية تقول: «أميمتي وعلى غربتي ف بلادات الناس أيما!»

وعندما ذهبت النساء وجلسنا نعلق على الضيافة قالت جدتي لأمي:

- هل رأيت كيف تحور الشرقاوية كلمات الأغنية: «يا ليلى كلمي بوك لي» عوض «ياسلمة كلمي سيدك لي»؟ الفاجرة!

وانفض الموسم وبدأت جدتي تتكلم عن الرحيل وأمي تستبقيها فتقول:

- لقد بقينا شهرا أيما.

- زدي غدا فقط.

وفي الغد تقول:

- زدي غدا.

حتى قالت جدتي:

- اسمعي، لقد أتعبتني بالغدوات. كل يوم «غدا». إن لي أنا أيضا بيتي ومكاني، وغدا علي بالحلف الكبير لاأزيد دقيقة واحدة هنا. إيوا الصلاة ع النبي.

وشرعت أمي تحزم متاع أهلها وتبكي. وفي الغد خرجوا بأكياسهم في السابعة والنصف إلى محطة الحافلة أمام مكتب البريد، وخرجتُ معهم ولكن حارس الإدارة قال لجدي:

- لقد مرت الحافلة منذ نصف ساعة أعمي السرغيني.

فرجعوا إلى الدار، وفي اليوم التالي قال لهم الحارس نفس الكلام، فقال جدي:

- عجبا!

- تأتي متأخرا وتقول: «عجبا».

- كم الساعة ياترى؟

- التاسعة. الحافلة تمر في الثامنة وأنت تأتي في التاسعة وتقول عجبا ؟

- ولكننا خرجنا من الدار في السابعة والنصف. عجبا والله.

وعندما رجعوا إلى البيت وجدوا أن أمي كانت تؤخر المنبه حتى تفوتهم الحافلة ويبقوا معها يوما آخر.

لم يكن والدي يأكل معنا أبدا، وكانت أمي تقول منتقدة: «لايعرف كيف يأكل بدون ضيوف.» وكنت عندما أسمع سعلته من بعيد ألبد رعبا حيث أكون. كان يكفي أن تقول أمي: « ها هي فيك! » وتقبض على ذقنها « ... والله يا باباك! (تنطق البائين رقيقتين وتقصر الأولى وتمد الثانية) ياغير إلى ما جا باباك! » فكان يكفي ذلك لأترك ماأقلقها على الفور وأجمد، مع أنه لم يضربني إلا مرتين. مرة لأنه رآني من خلال ستار غرفة الرجال أرقص في الصحن على أنغام الراديو، ومرة لأنني ذهبت مع البنات لنطل على باب الحاكم الفرنسي الذي كان يقيم في بيته حفلا راقصا. كنت أعرف أنه شيء لايجوز، ومع ذلك ذهبت لأرى كيف تكون حفلات النصارى. كان على الدوام مع أصحابه، سواء داخل البيت أو خارجه. كان يذهب لتوه إلى غرفة الرجال ثم ينام بعد الغداء فيخرج بنا السجين متسللات إلى غابة الصنوبر لنلعب فيها حتى يستيقظ ويخرج إلى المكتب. كان يضربنا على مؤخراتنا كما يفعل الفرنسيون ضربا مبرحا لا يترك أثرا ولكنه لاينسى.

وبعد ذلك سافرنا إلى صفرو بغتة، تلك السفرة التي سجن فيها والتي ترويها أمي دائما مبتدئة بذات يوم فتقول:

- ذات يوم كان في البيت، فجاء الحارس من المكتب وقال له إن تجار القرية قد جاؤوا ليقدموا شكوى بالسي مولود ليدخلوه السجن.

قلت:

- ولماذا؟

- لنشاطه الوطني. نفاه النصراني ولم يقنعه النفي فحرض عليه تجار القرية. قال لهم: « إن قلتم إن لكم ديونا عليه أغنيتكم. »

- ولماذا نفاه؟

- لأنه وطني. الحاصل، ذهب أبوك وقال لهم: « من كان له على السي مولود دين فليقيده. » وكان أبي قد مات من ثلاث سنوات وأخواتي قد بعن أرضا تركها رحمه الله فقال لي:

- اذهبي وأرسلي لي حصتك من تلك الأرض في حوالة مستعجلة أسدد بها دين السي مولود المزعوم وسألحق بك بعد ثمانية أيام، فإن مرت الثمانية أيام ولم تريني فاعلمي أنهم أمسكوني.

وعندما ذهبت وبعثت له بالنقود وذاك الشي، جاءني إعلان يقول إن علي أن أكون في مكتب البريد في الساعة الفلانية، حيث سيطلبني فلان من القصيبة فذهبت مع بوعزة فكلمه وقال:

- لن أتمكن من المجيء. هات أختك وتعال بسرعة.

فأخذت منه السماعة وقلت:

- ألم تقل إنك ستأتي؟

فقال:

- لم يعطوني الإجازة.

فقلت:

- لست السي أحمد. ليس هذا صوته.

ورجعنا إلى البيت فقلت ليما إن القضية فيها وفيها، وأنه قال تعالوا اليوم. ثم ركبنا أنا وسيدي محمد وأنتن وذهبنا إلى خنيفرة،

وعندما دخلناها قالوا إن الحافلة لاتخرج إلا عند الفجر، فجاء مساعد السائق، مسكين، وأخذنا إلى بيته. وعند الفجر ركبنا ونزلنا عند علامة القصيبة، ثم جاءت شاحنة ولوح لها سيدي محمد فقال له السائق:

- لايركب إلا واحد.

فقال:

- لن يركب غيري. سأذهب لأخبر عزيزي بوصولنا.

وركب معه وبقينا نحن. ها بلعيد يصل من بني ملال في طريقه إلى القصيبة. قال :

- الله! لماذا أرسلته؟ إن الدار تحت الحراسة ولن يكلمه أحد. الناس خائفة. إيوا الآن انتظري هنا. سنوصل البريد وعندما نعود سآخدكم إلى زاوية الشيخ.

وأخذنا إلى بيته. هل فهمت؟ فبدأت أمه، مسكينة، تبكي وتقول:

- الله يَا لَلاَّ سنتان مدة طويلة.

فقلت:

- وهل حكموا عليه؟

قالت:

- حكم النصراني وأرسله مع حارس من بلد إلى بلد. عقدوا حبلا حوله وشدوه إلى فرس، وبقي حارس يسلمه لحارس حتى أوصلوه الرباط.

ودخل بلعيد فقلت:

- يا بلعيد سقت لك وسقت لك ... إن الركاب الذين ركبوا معنا في خنيفرة كلهم من بني ملال، وسيقولون لأهله إننا وصلنا وستقوم

القيامة ولايعرف أحد أين نحن. الخير والجميل أن ترسلنا إلى بني ملال.

إيوا كذلك كان. أخرجنا المسكين وأوقف حافلة، وقال للسائق هاكيف وكيف، « هؤلاء بنات السي أحمد »، فقام لنا بعض الرجال من مقاعدهم، وجلسوا، مساكين، على الأرض. ووصلنا فوجدنا الدار غاصة بعباد الله.

سعيد والروبيو ذهبا إلى العلامة وبدأ واحد ينادي من هنا وواحد ينادي من هناك : «فطومة! يافطومة!» فلم يجدوا أحدا فقالوا : «لعل أحدا أخذهم إلى القصيبة.» فصعدوا إليها ووجدوا سيدي محمد، مسكين، في الشارع قرب باب الدار يبكي بعدما حل عليه الليل. كان الحارس قد قال له: «ابق بجانبي. إن جاء بعض النصارى أو شيء إذهب لحالك، وإن لم يأت أحد هاأنت بجانبي حتى نرى.» وكل من مر من أصحاب عزيزه يكلمه فيشيح بوجهه ويمضي.

كان رجل من بني ملال قد رأى السي أحمد في الرباط وهو مع الحارس، وبقي ينظر إليه فقال له الحارس: « كلمه إن شئت. ليس هنا أحد من النصارى. » وهو الذي جاء بالخبر. حكى له، قال: « أوصلوني إلى وادي زم ثم خربكة ثم برشيد، فكنت أقضي الليلة وفي الصباح أواصل المشي، وحارس يسلمني لحارس، وها قد جاؤوا بي إلى الرباط. » إيوا دخل سعيد وحكى ذلك وبدأ يبكي، فبدأت جدتك، مسكينة، تضرب على صدرها. إيوا بدؤوا يبكون، وعندما انتهوا من البكاء إلتفتُّ إلى أبيه وقلت له:

- إيوا أسيدي، ها قد جاء خبره وعرفنا أين هو. الآن سعيد والمعطي وأنا نذهب لنراه.

فقال لي:

- لا أللا! إنه لم يترك لي مزارع تدر عليَّ ريعها. ما الذي فعله لنا النصارى؟ في أيامهم رأينا الماء وفي أيامهم رأينا الكهرباء وفي أيامهم رأينا الشوارع تكنس. لانراه ولايرانا وليقتلوه إن شاؤوا.

قلت:

- إيّه؟

قال:

- إيّيه!

قلت:

- إن كان الأمر كذلك أذهب لحالي.

قال:

- بالسلامة.

قامت زوجته الأولى أو امرأة أخرى وقالت:

- منذ وصلت وهي لاتكف عن البكاء.

فقامت أخرى وقالت:

- يحق لها أن تبكي، نعم تبكي.

فقامت زوجة أبيه وقالت:

- إنها لاتبكيه ولكنها تبكي قمصانه التي يلبسها إخوته، وتبكي أوانيها التي نستعملها وفراشها الذي نجلس عليه.

فالتفت إليها وقلت:

- ذاك لا أبحث فيه الآن، فقط السجن لم أره في حياتي.

فقال العجوز:

- قلت لك لن نذهب.

فقلت:

- ليس معي ثمن تذكرة السفر.

فقال:

- ليس عندي ما أعطيه لك.

فقلت:

- أعطني السيارة ويوصلني ولد للا محجوبة. أليست سيارتنا؟ سيارتي وسيارة أخي وسيارة يما. اشتريناها بفلوسنا.

قال:

- لم تعد هناك سيارة. ذهبت. لاأعرف أين هي.

إيوا جاء ولد للامحجوبة وسعيد وقالا:

- نوصلك إلى آزرو وتكملي وحدك.

قلت:

- أوصلاني إلى آزرو وأكمل.

إيوا وصلنا آزرو وبتنا تلك الليلة في دار خناتة أختى. وفي الصباح أفطرا وخرجا وخرجت معي خناتة إلى المحطة. وعندما وصلنا ذلك اليوم، أعطانا الله سلامة الوقت، مازلت أذكره كما يذكرني الله بالشهادة، يوم أربعاء، مساء، دخل عمي، مسكين، وقال لي:

- ماذا تنوين أن تفعلي؟

قلت:

- أسيدي، غدا الخميس، ويوم الجمعة نذهب لنراه.

قال:

- وهل تعرفين الرباط؟ من أين تعرفين الرباط؟

قلت:

- أسأل.

إيوا أقصر لك في الكلام. قال لي:

- ومعك النقود ؟

قلت:

- أدبرها وعندما أعود أبيع شيئا.

قال:

- إيوا أنا أبنتي ليس عندي ما أعطيه لك.

قلت:

- العاطي الله.

وقامت يما، مسكينة، وقالت:

- أسيدي لانطمع في أن تعطينا.

قامت، مسكينة، وقالت:

- ها كراء أخواتك قد جْمع. نقترضه ونسافر به. من سيذهب؟

قلت:

- أنت وبوعزة وأنا. كانت ماتزال على شيء من قوة. إيوا ركبنا. سر ، سر ، سر. وصلنا الرباط ولم نعرف أين نولي وجوهنا ثم سألنا عن العلو، ووصلنا السجن وسألنا بعض الناس فقالوا لنا:

- زيارتكم الأولى؟

قلنا:

- أجل.

قالوا:

- قد يكون لايرى. إن شئتم اشتروا طعاما وادفعوه. بدون أكل لن يدخلوكم.

والجمعة والدكاكين مغلقة. كانت تغلق في ذلك الوقت. إيوا

ذهبت واشتريت السجائر ومايلزم من يهودي، الخبز والمربى وهذي وهذي وجئت به. أخذت الفوطة التي أتزرُ بها وحزمت فيها كل شيء. قلت ليعرفها. ووضعناها مع أكل الناس. إيوا جاؤوا وبدأوا يدخلون الأكل فسألني النصراني:

ـ ماذا يقرب لك؟

قلت:

ـ زوجي.

قال:

ـ وأين تقيمين؟

قلت:

ـ في صفرو.

إيوا أدخل الطعام فتقدم مني حارس مغربي وقال : هذا السيد من أجل أي شيء دخل السجن؟ من أجل الوطنية؟ قلت:

ـ أجل.

قال:

ـ ما اسمه؟

قلت :

ـ أحمد بوزيد.

قال :

ـ هاأنا داخل قبل أن يعود ذلك الكافر. سأذهب لأكلمه وأرى إن كان ممنوعا من الزيارة حتى لاتنتظري طويلا.

إيوا كذلك كان. ذهب السيد وكلمه وعاد وقال لي:

ـ أللا يقول لك كَسَّر الشرع. سجل عليهم دعوى لأنهم اقتحموا

بيته وفتشوه في غيابه، ولذلك فهو ممنوع من الزيارة. والآن يقول لك اذهبي إلى الإدارة الشريفة واسألي عن فلان، وعندما يدلونك عليه قولي له : «أنا زوجة فلان» وسيعطيك التسريح. قولي له أن يسجل كل من معك حتى لايتركوا لك أحدا في الخارج.

وقلت ليما :

- أيما اجلسي في حالك هنا وأمسكي البنات، ها أنا ذاهبة.

ذهبنا أنا وبوعزة وبقيت هي، مسكينة. إيوا لم يكن هناك حينذاك طاكسيات، لم يكن هناك سوى العربات التي تجرها الخيول، فذهبنا من العلو إلى تواركة على الأقدام. ووجدنا رجلا يغلق الأبواب فقلنا له:

- أسيدي من فضلك.

قال :

- أللا ذهب الموظفون. ماذا هناك؟

قلت له كيت وكيت وكيت. قالْ:

- إذهبي الآن إلى مولاي إدريس (آ... مولاي الحسن) وابقي هناك حتى يصلي السلطان ويعود إلى القصر، والثانية تجدك هنا وسأدخلك قبل الجميع.

إيوا ذهبت. لم أ... حينذاك. مع أنني كنت أشم رائحة السجائر في المرحاض كنت أقول إنه يخفي عني، لا عليه (بوعزة أخي). بدأ يتبرم. قلت له:

- مابك؟

قال:

- ليس معي سجائر.

إيوا أعطيته ثمن سيجارتين وبقينا والناس كل يحكي قصته. إيوا الحاصل، أقصر لك في الكلام. صلى السلطان وبدأ الناس يخرجون فقلت له:

- قم حتى نأخذ مكاننا في الصف.

إيوا ذهبنا ووجدنا الرجل قد جاء والناس تتوافد فقال لهم إن هذه المرأة كذا وكذا، وإنها جاءت قبل الجميع فقالوا له:

- أسيدي عندما يأتي السيد سبقها.

وعندما جاء الرجل دخل عليه وقال له إن هناك سيدا اسمه كذا... قال: «أدخلها». دخلت فقال لي:

ماذا يقرب لك أللا؟

قلت:

- زوجي.

قال:

- قضيته صعبة قليلا. يعمل معهم ويقرأ الأوراق التي يجدها في سلة المهملات ويخبر الوطنيين.

قلت:

- والآن؟

قال:

- سأكتب لك التسريح ونترك الباقي على الله. كم معك من الأشخاص؟

قلت:

- أنا وأخي ويما وبناتي، ثلاث، صغيرات.

قال:

- أكتب لك تسريحا لستة.

وعندما ذهبت وأعطيته للنصراني دخل وعاد يقول:

- ممنوع من الزيارة. سجل دعوى على الحاكم.

فذهبتِ لحالي وبقيت يالله، يالله، يالله. كنت أذهب بالطعام، وعندما يخرجون لي الأواني أعرف أنه عرف أنني قد أتيت. وذات يوم جئت فوجدت عند باب السجن عميد شرطة بني ملال، فقال لي:

- تقفين في هذا المكان؟

قلت:

- أجل.

قال:

- زوجك ذاك كلب لاقيمة له. إيوا الآن هو ممنوع من الزيارة، ولكنني سأدخلك ليعرف قيمة أسياده.

لم أرد عليه. ودق الجرس فخرج الحارس وقال له:

- مكانك. ليس هذا وقت الزيارة.

فأخرج له الشارة فحياه وفسح له فدخل ودخلت وراءه. ونادى حارسا آخرا وقال له:

- أحضر فلانا.

فذهب وأحضره. أنا وإياه وراء سياج وهو وراء السياج الآخر.

قال له:

- فلان!

قال:

- نعم

قال:

- كيف تجد هذه؟

قال:

- حلوة.

- يعني مالذي فعله لك النصارى؟

- ذاك شغلي والإنسان لايموت إلا مرة واحدة والآن ماذا تريد؟

- ماذا أريد؟ أن أقول لك كلمتين ثم آتي بك إلي.

كنا في رمضان، وذهبت مع عميد الشرطة رفقة حارس ووقفنا في ساحة، وجاؤوا بأبيك فقال له:

- هذه الآن في صفرو. لاداعي لأن تأتيك بالأكل، وأنا الآن في الرباط وسأرسل لك الحريرة والأكل.

فقال:

- علي بالحلف الكبير لاأذوق حريرتك. امرأتي تأتيني بالأكل وإن لم تأت به هناك شربة السجن.

قال:

لاترضى أن تأكل طعامي؟

قال:

- بالضبط!

إيوا الحاصل ذهبت لحالي ثم بدأوا يسمحون لنا بالزيارة فجئت. ووجدت محمد في باب السجن. إيوا:

- كيف حالك؟ لاباس عليك؟

- لا باس.

قال.

- جئت ولم أعرف أين أذهب. يقولون إن الزيارة بالتسريح. قلت:

- نعم.

قامت يما، مسكينة، وقالت لي:

- أيما أدخليه مكاني ليرى أخاه.

إيوا الحاصل كذلك كان. إيوا دخلنا، أقصر لك. رأيناه فقال له محمد:

- هل تذهب فطومة معي؟

قال:

- ذاك شغلها الآن. خذها وهل أقول لك لا تأخذها؟ فقط، اسمعي أنت.

- قلت:

آ ؟

قال:

- دارك، هناك من يريد أن يكتريها ويريد أن يعرف أين يجدك. لم تكن لي أية دار إنما قصد الوطنيين. كانوا يريدون أن يتصلوا بي ليساعدوني.

قلت:

- طيب.

فقال:

- اذهبي الآن معه.

إيوا ذهبت. قبل ذلك قال:

- انتظروا في الخارج. سأكتب رسالة وأعطيها للمدير.

إيوا خرجنا وبقينا في باب السجن فخرج حارس وقال:

- من جاء لزيارة أحمد بوزيد؟

قلت:

ـ أنا.

قال:

ـ هذه رسالة منه.

فأمسكتها وذهبنا. إيوا الحاصل لاداعي للتطرق لمشكل كبورة. طويل. كبورة وزوجها حضرا عقيقة عميد شرطة بني ملال في الدار البيضاء. وعندما وصلنا قام محمد وقال لهم إن ولد حَمَاد وكبورة قد حضرا عقيقة ولد فلان، فبدأت جدتك، مسكينة، تضرب فخذيها ووجهها وتقول:

ـ من لايزور ابني لايحلو لي.

قومي يا عيشة خذي بعضك واذهبي إلى خالتك وقولي لها ها ما قالته الصفريوية وها ماقالته. أقسم لك بتربيتي لك وقد مضى العهد الآن، أن جدتك هي التي قالت ذلك الكلام. وفي المساء، الدار إلى هنا بالناس وأنا نعيمة في حجري عندما دخلت كبورة مع أمها. وبدأت الأم تحجل وسط الدار وتقول:

ـ هكذا أ الصفريوية؟ ياعجوز! لأي شيء أمسكوا سيدك؟ أمسكوه بسبب علاقاته مع سيداتك.

وكذا وكذا وكذا فالتفت إلى جدك وقلت له:

ـ أيعجبك هذا أسيدي؟ الدار ملأى بعباد الله وهما تسباني وأنتم تنظرون.

فقال:

ـ إيوا أبنتي، إنهما في داري ولا أستطيع أن أقول شيئا.

فالتفت إليها وقلت لها:

ـ إن كان زوجي قد أمسك بسبب الزنى فقد كان زوجك مثل الكلب: «هب، هب، هب» والعود في يده. هذاك يشرب والآخر يقطر ثمالته.

قالت:

- يا قصيّرة!

قلت:

- وأنت يا قصبة النهر. إن فاض ذهب بك (بها هي إن شاء الله). إيوا ما علينا، ذلك اليوم قلت له:

- أسيدي هذه الرسالة بعث لكم بها ابنكم.

قال:

- هاتيها.

أمسكها ونادي: المعطي! أ المعطي! تعال أمسك هذه الرسالة. انظر ماذا يقول أخوك فيها.

إيوا أدخلتها له زوجته وبقينا ننتظر وننتظر، وأخيرا قال الأب:

- إيوا أطلقنا!

فقال:

- وهل هي رسالته؟ أخوها هو الذي كتبها. ليس هذا خطه. قلت للأب:

- كثير عليه قراءة الرسائل.

قال:

- وهل سيكذب عليك؟

قلت:

- إيوا قم خذها لمن كان يقرأ لك رسائل ابنك عندما كان في مولاي علي الشريف وسترى.

فقال:

- ليست رسالته. هاتوها!

أخذها وخرج فقال لي بوعزة:

ـ تعالي ياأختي إلى الغرفة. لاتبقي معهم. قد يضربوك. تعالي نقفل علينا باب الغرفة في انتظار أن نعرف ماذا يقررون وانتظار موعد الحافلة.

إيوا دلفنا إلى الغرفة وأغلقناها علينا ثم جاءت زهرة أخت أبيك من أبيه. إيوا قعدوا يحكون لها فجاءت إلي النافذة وبدأت عبر الشباك: «يافاعلة ! ياتاركة! يا من كنت تستغلينه أنت وأهلك! ياكذا! ياكذا!، خذي!» ومدت لي أصبعها الوسطى فأمسكتها وضغطت عليها فوق حديدة الشباك إلى الخلف. هي تصرخ وأنا أضغط، وبينما نحن كذلك سمعنا طرقا على الباب، وفتح بوعزة فأطلقت أصبعها ووجدنا الروبيو رحمه الله. وقف وقتها وقفة الرجال. جاءني وقال:

ـ لاتخافي.

قلت:

ـ لاخوف إلا من الله.

قال:

ـ لقد جاءت العريفة لتأخذك إلى المحكمة. لقد سجل خالي عليك دعوى يتهمك فيها بالتزوير.

قلت :

ـ وكيف أفعل؟ والبنات؟

قال :

ـ البنات هن مفتاح الخير. بوعزة يحمل فاتحة وأنا أحمل نعيمة، وليلى تمشي على قدميها وسأدخل معك.

إيوا ذهبنا فوجدنا الأب جالسا على كرسي في مكان الانتظار.

وخرج المخزني: «فلان بن فلان! فلانة بنت فلان!» فدخلنا، ووقفنا أماء القاضي. إيوا لم يقل له شيئا ولكنه التفت إلي وقال:

- لأي سبب كنت مسافرة عندما أمسكوا زوجك؟

فقال العجوز:

- لأنه طلقها.

قلت: « بسبب...» ذكرت له السبب، أنني ذهبت لأخذ نصيبي من أرض أبي لأبعثه له في حوالة بريدية ليسدد دين صديقه الملفق. قال:

- والقسيمة؟ لابد أنها ليست معك؟

كانت وحق تربيتي لك ماتزال في جيبي فقلت له:

- ها هي!

قرأها وقال له:

- ماذا أقول لك؟ يا كلب! وتقول طلقها. القسيمة فيها كيت وكيت وهي ترسلها إلا فلان الفلاني في القصيبة.

قال له:

- هكذا؟ هو يكافح من أجل الوطن ومن أجل غيره، هل هذا هو كفاحك أنت؟

قال له:

- بأي حق تستولون على فراشها؟

قلت له إنهم استولوا على الفراش وفعلوا وفعلوا. قال:

- بأي حق تستولي على الفراش؟

قال:

- ابني وكان يصرف علينا، وأنا كبرت وسأبدأ أبيع فراشه وأصرف منه على أهلي. إنها لاتملك فيه مسمارا. كل شيء ملك ابننا.

قال له:

- هكذا؟

قال:

- نعم.

قال:

- والآن؟ يعني والرسالة التي جئت بها ؟ أين هي؟

قال له:

- هاهي!

فقرأها وقال:

- ماذا أقول لك؟ ماذا عساني أقول لك. يقول: «يا أبي الحنون، يا أمي الحنون بحق تربيتكم لي وتعبكم من أجلي وتعبي من أجلكم، عاملوا هذه المرأة معاملة حسنة وأعطوها السيارة وأعطوها فراشها ودعوها تذهب في حال سبيلها.»

قال:

- أسيدي، تلك الرسالة مزورة. ها من كتبها.

فقال بوعزة:

- أسيدي، إن ثبت أنني كتبتها أدخلني السجن معه لنعيش معا أو نهلك معا.

قال القاضي:

- اسمع! تعرف كم الساعة الآن؟ إنها الواحدة. اذهبوا الآن والثانية تجدكم هنا.

فقال العجوز:

- داري حرام عليها.

فقام الروبيو وقال:

- أسيدي مرحبا بها في داري.

فقال القاضي:

- ماذا تقرب لك؟

قال:

- لاشيء. هو الذي يقرب لي. خالي، أما هي فليست سوى زوجة ابن خالي. كانت تحسن معاملتنا.

فقال له:

- جازاك الله يابني، علي وعلي، لو لم يكن هذا السيد يكافح من أجل الحق لأرسلتها إلى دار الثقة.

فقال الروبيو:

- أسيدي، إنها لم تقل إلا الحق. أنا نفسي رأيت النقود عندما وصلت. كنت عنده ورأيتها.

وذهبنا إلى دار الروبيو ورحبت بنا أمه رحمها الله وزوجته رحمها الله أو ذكرها بالخير. وتغذينا غذاء من انقلب عليه الزمن وقمنا. تركنا البنات وذهب ثلاثتنا فوجدنا العجوز بارزا على الكرسي. ونادونا فتكلم القاضي في موضوع آخر. قال:

- والآن ماذا أنتم فاعلون؟ والفراش؟ (وكذا ؟)

قال العجوز:

- لن تأخذ منه إبرة. كل شيء ملك لابننا.

قال:

- ابنكم؟

قال:

- نعم.

قال:

- هل أعطاك الإذن بأخذه؟

قال:

- لا ولكنه ابني.

قال:

- اسمع! غدا عند الفجر، مخزني وهي وأخوها وابنك الذي باع السيارة... (إيه ... قبل ذلك قال له):

- أين ابنك الذي باع السيارة؟

فقال:

- غير موجود. سافر.

فقال:

- إن كان قد سافر فسوف يعود.

قال:

- غدا وقت خروج الحافلة تكونون في المحطة والمبيت عليك. كنت قد قلت له إنه ليس لي مكان أبيت فيه في الرباط. زوج أختي كان يعمل مع النصارى ويخاف على وظيفته. قال القاضي:

- تذهبون إلى الفندق. أنت وأخوك في غرفة، والمخزني وابن هذا في غرفة وهو يدفع، فإن قال زوجك إنه لم يكتب الرسالة تصرفنا والسلام.

رجعنا إلى الدار وذهب الروبيو يسأل عن المعطي فقالوا له: «ذهب إلى أخيه ليقلب رأسه» فجاء، مسكين، وقال:

- لقد ذهب ابن الـ... (1) إلى أخيه.

---

(1) سبة.

ولكن بقدرة الله الكريم لم يسمحوا له بالدخول. لم يكن معه تسريح. لم يدخل. لعلهم كلموه في التلفون حيث كان أو لعلهم أخبروه في الدار التي كان يختفي فيها. إيوا الحاصل قالت لي أم الروبيو:

- اتركي لي البنات واذهبي، فإن قال ابن أخي إن الرسالة ليست رسالته ورفع كتفيك فتعالي على الرحب والسعة.

قلت لها:

- شوفي أللا فطومة، لا أترك البنات حتى إذا ما وقع مانخشاه ذهبت لحالي من هناك.

الحاصل بقينا نقلب الأمر وذهب الروبيو، مسكين، إلى سيدي المعطي الأعمى. كان يشرف على الحافلات وقتئذ فأعطاه بطاقتين مجانا، وقامت زوجة الروبيو في ذلك الليل وخبزت رغيفا نتزود به. إيوا الحاصل، أقصر لك، ذهبنا.

ذهبنا إلى الإدارة الشريفة وطلبت ثلاثة تساريح. اثنان لنا وواحد للمخزني ورجعنا إلى السجن. وجاءت شاحنة بالمساجين وبدأت تتقهقر، فابتعدت من طريقها والتفت فرأيت المعطي والمخزني جالسين على حائط وأحنيت رأسي. وبدأ الدخول. لم يكن معي أكل.

قال الحارس:

- ليس هناك أكل؟

قلت:

- لا يا سيدي.

وأعطيته الأوراق فوقفا خلفي وقال لهما:

- أين أوراقكما؟

قالا:

ـ نحن مع هذه المرأة.

وقال له المخزني:

ـ لقد جئنا في موضوع شرعي.

إيوا دخلنا وخرج. إيوا:

ـ ما أخباركم؟ لا باس؟ ما أخبار البنات؟ كيف حالهن؟ (وكذا وكذا) ثم قال:

ـ ماهذه الزيارة؟ ماذا كان في شأن الدار؟

قلت:

ـ أية دار؟ (ها ما كان وها ما كان). حكيت له فالتفت إلى أخيه وقال:

ـ ماذا تقول أنت؟

قال:

ـ كل ما قالته صحيح.

قال:

ـ وهذا؟ لماذا جاء معكما؟

قال المخزني:

ـ أسيدي، أنا مرسل من قبل القاضي. جئت لأسمع منك.هل كتبت رسالة لأبيك تطلب منه فيها أن يسلم زوجتك جميع فراشك؟

قال:

ـ شف، المسمار في الحائط إن قالت إنه لها فهو لها. ليس لي في ذلك الفراش إبرة. كل شيء لها. والسيارة التي باعها هذا وأنا في السجن يعاقب عليها. بأي حق يبيع سيارتي وأنا في السجن؟

قام الحارس وقال:

ـ أسي، أسي، أسي، ليست هذه دار الشرع.

قال:

- إنها أكثر من دار الشرع. لقد جاؤوا في موضوع شرعي. وذهب الحارس وجاء بالمدير.

وعندما خرجنا لاقى الـ.... [1] (أستغفر الله العظيم) سبابته وإبهامه ورفع يده في الهواء وقال لي:

- مري من هنا.

قلت:

- مازلنا في باب السجن.

قال:

- إن وجدته الآن اقطعي رأسه واضربيني به.

فرفعت سبابتي إلى السماء وقلت:

- ذاك هو من يضرب.

قلت لأمي:

- في 1980 جاءنا في الرباط وانتظر حتى خرجت إلى المطبخ وبقيت وإياه في الغرفة، فقال لي: «اسمحوا لي عما كان مني في 53. كنت أحمق. أريدك أن تعرفي أن عمري كان سبع عشرة سنة.»

- وماذا قلت له؟

- لم أقل شيئا. فوجئت فلم أقل شيئا ولكنني في 82 قلت: عندما حدث منهم ماحدث حول الإرث بعد وفاة والدي قلت له: «تذكر ما قلته في مكانك ذاك منذ عامين، أنك فعلت مافعلته في 53 بسبب أن عمرك كان سبع عشرة سنة؟ والآن كم عمرك؟

---

(1) سبة.

- وماذا قال؟

- لم يقل شيئا. بقي يحملق في ولم يقل شيئا.

- إيوا إلى أين يعود حديثنا؟

- إلى الصلاة على النبي.

- صلى الله على الحبيب وسلم. خرجنا من السجن وذهبنا إلى بني ملال، بني مرّار، وجاء استدعاء القاضي. وعندما دخلنا عليه قال للعجوز:

- ماقولك الآن؟

- مازلت أقول إن الرسالة مزورة.

قال:

- هذه مرحلة تجاوزناها. الآن المخزني والعريفة... ولاتبقى امرأة واحدة في الدار وتأخذ فراشها، فإن وجدت إبرة واحدة تنقصها تخلفونها بالمِخْيَط.

وخرج كل من في الدار حتى جدتك المسكينة، رغم أنها كانت مريضة، أخرجوها. وذهب الروبيو إلى صاحب شاحنة وقال له:

- تعال في الساعة الفلانية لنقل فراش السي أحمد.

وذهبنا نحن إلى داره وتغذينا غذاء كما كتب الله. أقصر لك، في العصر ذهبنا. اجتمع الرجال والحمالون وقالت لي العريفة.

- أللا، على مهلكِ وانظري هل ينقصك شيء.

قلت لبوعزة:

- ينقص جهاز راديو وبطاريتان.

فقال:

- لا تثيري علي مشكلة أخرى. إن قلت لهم ذلك الآن أمسكونا

ونحن.في دار الناس.

الحاصل، دخل الحمالون وقال صاحب الشاحنة للروبيو ولبوعزة:

ـ أنا الآن ذاهب في الليل، فإن أمسكنا الدركيون فلتقل إنه زوجي، كان يشتغل في بني ملال وطرد من عمله وليس لنا ما نأكله، فأنا ذاهبة إلى بلدي وإن نجانا الله فذاك مانبغي.

إيوا لم أحب أن أسأل كم طلب. الرجال الذين كانوا واقفين هم الذين دفعوا له أجرته. إيوا وصلنا مع ظهور أوائل ضياء النهار ولم يوقفنا أحد ولا التقينا أحدا في تلك الطريق إلا الله. وصلنا باب المقام، ها مولاي علي، مسكين، رحمه الله، أمين الحمالين:

ـ الحمد لله على السلامة. هل وقع للسي أحمد شيء؟ هل مات؟ هل قتلوه؟

قلت:

ـ فقط دار النصارى قالوا تفرغ والفراش يرحل فرحلته.

فنادى الحمالين وقال لهم:

ـتعالوا! اجمعوا هذا وخذوه إلى دار عمي السرغيني.

وقال لي:

ـ اذهبي لحالك. ها أنا معهم وعندما ينتهون سآتي معهم.

إيوا جاؤوا بكل شيء. وقلت له:

ـ كم أدفع لهؤلاء الناس؟

فوضع سبابته في صدغه ودورها وقال:

ـ إنهم يحملون بالفرحة ويدعون له وهم يحملون وتقولين كم؟ يأخذون أجرهم لو كان سجينا عاديا، أما وقد سجن بسبب الوطنية...

وأعدت لهم يما، مسكينة، الفطور، فطور القرح، فقط الشاي والخبز والخليع والزيتون وذهبوا.

صفرو

صحوت ووجدت حمالين يضعون الموائد في جانب من صحن الدار ويرصون فوقها الحشايا ويخرجون بسرعة. وبدأت النساء تتوافد، وكلما دخل فوج بكى وبكت أمي معه، ثم بدأت الحكي من أوله وهي تمسح عينيها قائلة: «ذات يوم ...» وهن يصغين في صمت لا تقطعه إلا طقطقة لسان أو تنهيدة.

وبعد يومين جاءت خالتي خناتة. دخلت واحتضنت أمي وبدأت:

- ياخيتي الصبارة! ياخيتي ال...

ثم جلست متحفزة للخطر وقالت :

- ذهب صبرك هباء. إنه متزوج. أمسكه اللّه والدم. كنا عند زهور وخرجنا نتجول فقال إدريس:

- تعالي نمر على السجن ونسأل عن إجراءات الدخول!

إيوا ذهبنا وجاءت امرأة ودفعت الأكل في اسم زوجك، وعندما سألها الحراس:

- ماذا يقرب لك؟

قالت:

- زوج أختي.

والآن إن كنت بنت بوشامة وأختنا الشقيقة، لاتقفي له في باب ذلك السجن أبدا.

وباتوا يلوكون ذلك الموضوع. وفي الصباح جاءت خالة أمي منكبة على وجهها، وجلست بالحايك في صدر غرفة يما في الطابق السفلي وبدأت:

- آ... أعطيتموه السيارة وهاهو يعطيها لأهله. براني وقلنا ما علينا، ويتزوج عليها! إيوا الآن إن كانت صفريوية حقيقية وأصيلة وبنت السرغيني وذات ذراع، لاتقف له في باب السجن أبدا.

وأمي لاتنطق، وعندما خرجت خالتها قالت لأمها:

- أيما، إن كنت تخشينهم فلا تأتي معي، وباب السجن ذاك الذي يقولون ألا أقف له فيه سأقف حتى يخرج، لأنني إن لم أفعل سيقال: «استغلته هي وأهلها والآن تتخلى عنه.» وعندما يخرج يعطيني خَطِّيً وما يخوله الشرع، وألزم بيت أبي حاضنة لبناتي.

فقالت أمها:

- أيما الواد اللي داك ما خلاني، وليقولوا ماشاؤوا.

وجاءت الجمعة، فتركتنا أمي في بيت ابن خالها وذهبت مع أمها ثم عادت تحكي وتعيد:

- إيوا ذهبنا. وصلنا ووقفت امرأة خلفي. إيوا قال لي الحارس:

- ما اسم السجين؟

قلت:

- فلان.

- ماذا يقرب لك؟

- زوجي:

ثم قال للمرأة:

- وأنت؟

قالت:

- أسيدي اللّه يرحم والديك مازلت في انتظار أمي. إن شئت خرجت من الصف.

وعندما ابتعد قالت لي:

- أللا سأقول لك كلمة. أنا زوجي ممنوع من الزيارة، وقد أرسل لي يقول أن أدفع له الطعام في اسم زوجك، فأنا أفعل ذلك على أنه زوج أختي.

ثم قالت:

ـ هل أدخل معك؟

قلت:

ـ ادخلي.

ودخلنا وبدأت تقول له:

ـ لقد جاءني الملك الأزرق في الليل وقال لي (كذا وكذا وكذا).

ثم قالت له:

ـ سآخذ السيدة وأمها معي إلى البيت.

قال:

ـ خذيها.

وعندما خرجنا سألتها:

ـ أين تسكنين؟

قالت:

ـ في سلا.

كانت هي وزوجها مدرسين في مدرسة النهضة الحرة. قلت:

ـ اسمحي لي، أريد أن أخبر الناس الذين أنزل عندهم حتى لا يقلقوا علي. سأترك لك أمي وأذهب. إنهم يسكنون قرب سوق الزرابي.

وذهبت فوجدت الرجل في البيت. إيوا:

ـ ما الأخبار؟ هل هناك معتقلون جدد؟

لأنه كان يعد لهم الطعام.

قلت ها كيف وها كيف وأنها كلمته وتريد أن تأخذني إلى بيتها قال:

ـ كلمته ورآها؟

قلت:

ـ أجل

قال:

- ارجعي إليها. لدي لائحة المعتقلين. إسأليها عن اسمها واسم زوجها.

فرجعت وقالت:

- قولي له أنا ثريا السقاط وزوجي محمد الأسفي.

فذهبت إليه وقلت له ذلك وأنها تسكن في سلا.

إيوا ذهبنا وحل الليل وإذا برجل يطرق الباب. شعره على وجهه إلى هنا وإلى هنا، عليه جلباب صوف ثقيل، ممزق، وفي قدميه نعل قديم يشده بحبل، فدخلت معه إلى الغرفة وقالت لي يَمًّا:

- أيما هذا الوجه كأنني أعرفه، كأنه وجه حارس السجن. الوشمة على الأنف.

هو من كانوا يسمونه الملك الأزرق. كان يحمل الرسائل إلى السجن والأخبار.

ثم كان الحديث يعود بأمي إلى البئر فتقول:

- ذات يوم قال السلطان: «يوم الإثنين المغرب كله يصوم احتجاجا على اغتيال الزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد.» ووصله الخبر عند العصر، فخشي أن يكونوا لا يعرفون في بني ملال فذهب ليخبرهم كي يصبحوا صائمين. وعندما رجع بعد آذان العشاء وجد الحراسة عند علامة القصيبة، فأوقفوه وسألوه:

- من أين؟

قال:

- من بني ملال.

قالوا:

- ماذا ذهبت تفعل فيها؟

قال:

- سمعت أن أبي مريض فذهبت أعوده.

ووصل فذهب رأسا إلى المقدم في المركز. كانت ليلة أحد والأحد يوم السوق. قال له:

- أخبر الناس حتى لايفطر أحد غدا، حتى لايعجن أصحاب السفنج عجينهم. إن الدنيا ستصبح صائمة.

وعندما أمسكوا المقدم وقالوا له:

- من أخبرك؟

قال:

- فلان.

فمنعوا عليه الاتصال بأي شخص في المركز. عندها ذهبت إلى صفرو. وكان في البيت مع ابن الجيلالي فجاءه شخص بمناشير. وكان لديه مكتب في إحدى الغرف فعاد بها وهو يقول:

- انظر أ الفقيه، انظر خير اللّه! ألم يان لك أن تنضم إلينا؟

ووضعها على المكتب وحلق ذقنه وغير ملابسه وخرجا. هو ذهب إلى مكتبه وابن الجيلالي ذهب إلى مكتب النصراني. قال له:

- عرفت من يوزع المناشير في البلد. فلان. زوجته غير موجودة في البيت والمناشير هناك على المكتب.

فذهبوا إلى البيت وأخذوها ثم طلبوه. وعندما دخل وضعوا القيد في يديه ورموا به في زنزانة بقي فيها يومين، ثم جاؤوا به فقال له النصراني:

- تعمل معنا وتفعل هذا؟

أشار إلى المناشير فقال:

- إن ولائي لبلادي وليس لبلادك.

انتصب النصراني وصفعه، فركله هو في بطنه ووقع على الكرسي فالتفت إلى القائد وقال له:

ـ كن من الشهود أ القايد:

قال:

ـ أنت الذي صفعته ويداه مقيدتان فردها بقدمه. إن كنت تسأل إسأل ولا تضرب.

وفي اليوم التالي حكم عليه بسنتين وبعثه إلى الرباط، ولكنهم بعد سبعة أشهر أعادوا المحاكمة فوجدوا أنه يستحق أكثر. هل فهمت؟ فقالوا :

ـ تبدأ السنتان من اليوم.

ووصل الخبر إلى النصراني فقال لهم:

ـ أرجعوه إلي.

فأرجعوه. وجد كل أصحابه في السجن، خلاف الجزار و...كثيرين. وجمعهم النصراني وأمرهم بحفر بئر في تاغبلوت ، سماها الأمازيغ بئر الوطنيين. ماتزال هناك.

قلت لأمي:

ـ مع أن ماء النهر لايجد من يستغله.

ـ عمل غير مجدي من باب الأشغال الشاقة. الحاصل وصل الخبر إلى بني ملال فجاءت أمه لزيارته وذهبت إلى الإدارة. كان هناك حارس يسمى إبراهيم فجذبها إلى حائط وبدأ يبكي ثم قال لها:

ـ أللا إنه في البئر، وإنه لا يخرج منها ولايمكنك رؤيته.

فرجعت إلى بني ملال ورمت بالأكل في الشارع. عندما أردت أن ترمي الأكل إرميه في القصيبة. لماذا تتكبدين مشقة حمله على قدميك في الشمس مسافة سبع كيلومترات حتى العلامة؟ لم تجد السكينة وسيلة نقل فمشت إلى الطريق الرئيسية في الشمس تحمل القفة وتبكي.

إيوا دخلت البيت وبدأت تلطم وجهها وفخذيها وسقطت مغشيا عليها، فبقوا يقرؤون عليها القرآن. وقبل المغرب أخذ صاحب الأمانة أمانته.

إيوا ها أمه، مسكينة، رجعت وماتت، وبقي هو في تلك البئر مع أصحابه يحفرون ويملؤون وعاء كبيرا بالتراب والحجارة يجره معتقل آخر في أعلى البئر. وبينما هو يجر ذات يوم بدأ الوعاء يرتطم بالحيطان وسقط حجر على أحدهم فقال:

ـ اللّه!

وسقط فأطل المخزني وقال:

ـ من؟ من؟ من صرخ؟

قالوا:

ـ فلان. لانعرف ما به. لايتكلم. سقط عليه حجر.

وأفرغ الوعاء وأرسله وقال لهم:

ـ ضعوه فيه.

أخرجه المخزني ووضعه في الشمس وركب فرسه، ونزل إلى الحاكم فركب فرسه وصعد معه. وعندما وجد الرجل في الشمس قال للمخزني:

ـ لقد حكمت حكمك وانتهيت. ولماذا تأتي في طلبي مادمت قد أخرجته من البِئر؟

جرده من عباءته المخزنية ووضع القيد في يده وسلمه لمن أنزله إلى الإدارة، وأطل على البئر وقال:

ـ بوزيد!

ـ نعم

- نادي الوطنيين الآن لينقذوك.
- ابق! لاتذهب! سأقول لك أنا أيضا كلمة. ليس هناك سوى ميتة واحدة. هات الإسمنت ورخامة وأغلقه. ليس هناك سوى ميتة واحدة.
- لن تخرج من هنا.
- والسلام.

إيوا انتهوا من البئر فأخذوهم إلى الصحراء وبدأوا ينقلون الرمل من مكان إلى مكان وفي الليل يعود ذلك الرمل بقدرة اللّه إلى مكانه الأول، بفعل الريح والزوابع. وبعد سبعة أشهر شعر النصراني أنه قد شفى غليله فرده إلى الرباط. وعندما أرجعوه بعثوا به أللا إلى العادر. كان الناس يذهبون إليهم في تلك الصحراء وينظرون إليهم من بعيد وهم يمرون، ولكن المخازنية كانوا عندما لايكون هناك نصارى يقولون لهم: «كلموهم» وكذا وكذا.

بقي في العادر حتى أتم الحكم. باعوا عملهم للمعمرين. في ختان أولاد زهور جاءتني رسالة منه من الرباط يقول فيها:
- أرجوك! سينقلونني مع بعض الناس إلى العادر وليس لنا مانلبسه. هاتي (كذا وكذا وكذا) بسرعة.

كان هناك شريف، محال أن تذكريه. كان بجانب المحكمة يبيع القمصان وصدريات الصوف. كان قد أوصاني. قال لي:
- إن احتاج لشيء، أي شيء تعالي إلي. لاتدفعي لي في الحال وأبيعك برأس المال، رحمه اللّه، كتب اللّه له هذه الرحمة في هذا اليوم، إنه الآن في دار اللّه. إيوا حملت له الرسالة وقرأها وبدأ يبكي ثم قال:
- يقول لك بعد يومين سيأخذونهم إلى العادر. ها عدد الأشخاص وها عدد الصدريات، وها عدد القمصان وها عدد كوفيات الصوف، وها عدد جلابيب الصوف وها ... وها...

أنا أبكي وهو يبكي. قال:

- لاتبكي، أنت الآن لاتعرفين هذا الذي في الرسالة، سأتكلف به ولاتعطيني الآن فلسا.

نسيت ينساك الهم.

- والخليع.

لا داعي لأن أحكي لك عن أختي، عن ختانها أولادها وأنا في المحنة. قالت لي أمي:

- الآن يابنتي إن ذهبت معك ستقول: «ذهبت معها وتركتني.» اتركي لي البنات واذهبي.

وذهبت مع بوعزة. جئنا الرباط ونزلنا في بيت ابن يوسف، وفي الصباح أخذنا الملابس وذهبنا. وعندما وصلنا باب السجن وجدناهم قد جاؤوا بشاحنة وأوقفوها ومؤخرتها إلى باب السجن. أسندوا إليها عارضتين خشبيتين، وبدأ السجناء يصعدون عليهما والقيود في أيديهم وشخصان فوق، نصرانيان، كل نصراني يجر سجينا ويرمي به إلى قاع الشاحنة، حيث يسقط بعضهم على بعض كالبطيخ الأحمر، لأن أيديهم مقيدة، فقام الرجال الواقفون بمظاهرة. قالوا:

- كيف؟ نحن واقفون نرى وأنتم تفعلون هذا؟ إما أن تدعوهم يصعدون وحدهم وإما ...

قالوا:

- سيسقطون.

قالوا:

- ليسقطوا. لأن يأتي السقوط من عند الله خير من أن ترموا بهم كالبطيخ الأحمر، والآن إن رميتم معتقلا آخر سنجعل عاليها سافلها. الرجال يصرخون والنساء تبكي. خرجوا وكل يكلم أهله. قالوا:

- هل رأيتم؟ الآن لاتزورونا، وعندما نستقر ونعرف إلى أين يذهبون بنا سنكتب لكم.

لذلك ضعف سمعي، كنت أبقى بقلنسوة الجلباب على رأسي أياما وعندما أعود عرقانة أخلعها. إيوا الحاصل بدأنا نذهب إلى العادر. وذات يوم جاء رجل ووضع الأكل على الأرض فسألوه :

ما اسم السجين؟

قال:

- يحيى.

- ماكنيته؟

قال:

- ابن يوسف.

وكان ابن يوسف قد نفي فدخل ونادى:

- يحيى بن يوسف!

فهتف السجناء:

- يحيا!

لم يكن هناك أي سجين بذلك الإسم بالطبع. وخرجوا على الفور فلم يعثروا للرجل على أثر. بعد ذلك بدأ كل يدعيها لنفسه كما حدث مع قنبلة السوق المركزي بالدار البيضاء. محمد منصور مازال أصبعه مبتورا وكل يزعم أنه هو الذي وضع قنبلة السوق المركزي. منصور وضع القنبلة وعندما دخل إلى السوق وجد عدد المسلمين يفوق عدد النصارى فرجع ليبطل مفعولها فأصيب أصبعه.

وبعد حادث العادر ذاك منعوا الزيارة مدة طويلة ثم جئت فقال:

- هناك معتقلون لم تعد معهم نقود. أين أنت الآن؟

قلت :

- في الرباط. في دار السي عبد القادر بن يوسف.

قال:

- ارجعي وقولي له أن يرسل (كذا وكذا).

كتب المبلغ في ورقة أعطاها لحارس ألماني سلمها لي في الخارج. ورجعت إلى الرباط، وأعطاني الرجل المبلغ فجئت به إلى زوجة الألماني، مغربية اسمها فاطنة وسلمته لها. كانت ذكرها الله بالخير أو رحمها تسكن كوخا خلف السجن، وكنا نبيت عندها كلما تعذر علينا الركوب في نفس اليوم.

استقر بنا المقام في الغرفة التي آلت لأمي في الطابق العلوي من بيت أبيها، كانت عندما تسافر مع جدتي إلى السجن تتركنا في بيت ابن خالها أو بيت ابن خالتها، وهما داخل بستانين في طرفي البلدة. وكانت زوجة ابن خالتها تطبخ الحريرة في الصباح الباكر خارج المطبخ على نار الحطب، وكان أولادها يتسلقون أشجار التين قبل أن تصل إليها الشمس، ويجنونه في سلة ثم يجلسون في رواق مزلج، يفطرون بالحريرة والتين والبستان أمامهم.

وانتهى الصيف، وبدأنا نستعد لدخول المدرسة، فجاءت خالة أمي وقالت لها:

- صحيح أنك تنوين إدخال البنتين إلى المدرسة؟

قالت أمي:

- أجل.

قالت:

- وهل جننت؟ ومن سيشتري لك الكنانيش والأقلام؟

- الوطنيون يا خالتي. إنهم يتكفلون بنا. يرسلون لنا مصروفنا كل شهر.

- أدخليهما دار المعلمة ودعيك من المدرسة.

- لو عَلَيَّ لفعلت، ولكن أباهما يقول لي كلما زرته: «البنتان أمانة في رقبتك. أدخليهما المدرسة.»

- بقي في صولاته وإسرافه ثم ذهب لحاله إلى السجون والآن جاء يقول المدرسة؟ ماذا ستدرس البنت قولي لي ولماذا؟ أليس مصيرها الزواج والحمل والرضاع؟ من يسمعك يظن أنهما ستدرسان لك الدمياطي.

- السلطان ياخالتي، سيدي محمد بن يوسف، أمر الوطنيين بإدخال بناتهم إلى المدارس، وهو كما قلت لك يقول لي: «أدخليهما المدرسة»، وأنا لا أستطيع أن أعصي أمره.

- رجلك مجنون وأنت أجن منه. ذنبك على جنبك، قال له وريه وريه ولا عمى سر وخليه.

بعد ذلك، بعدما جاء الاستقلال وعين والدنا في مناصبه الحكومية بدأ يقول لنا: «لن أترك لكن فيلات ولاضيعات. لن أترك لكن سوى دراستكن»، ولم يكن يتساهل في ذلك أو يقبل منا إلا أعلى الرتب.

بدأ الاستعداد للمدرسة بالغسيل والحمام. ليلة الثلاثاء لم تترك أمي خرقة لم تلق بها في كومة الغسيل، حتى أغشية الوسائد وأغطية الحشايا وستار الغرفة، حتى خرق المطبخ والبلاط. وفي الصباح استيقظت باكرا وأوقدت النار في الحوش الخارجي على موقد حديدي ضخم، ووضعت عليه وعاء غلي الغسيل ثم ملأته ماء وأفرغت الجفنتين من بقية الماء الذي بيتته فيهما لجمع صدعهما، وثبتتهما على صندوقين، وجاءت بصرة الغسيل الضخمة وبدأت تعزل: مناديل الرأس،

الأبيض، الألوان، الأسود، الخرق. جعلت كل ذلك كوما، ثم صبت الماء الحار وماء الرماد في الجفنة وبدأت بمناديل الرأس. شطفتها ونشرتها في السطح ثم عادت ونقعت الأبيض وبدأت تفرك بصابون المنجل على اللوح المخروط بانتظام. بعد ذلك سحبت اللوح وبدأت تعرك، ثم تأخذ كل قطعة على حدة وتفركها بين يديها وهي تغطسها في الماء والصابون. ثم بدأت تعصر وترص على مائدة. بعد ذلك نقعت كومة الألوان وصبت في الجفنة الثانية الماء الحار، وحركت الثياب المعصورة ورمت بها فيها، ثم بدأت تدعكها بالصابون وتعرك وهي منكبة ويداها في ذهاب وإياب. ثم بدأت تعصر وترمي في «وعاء الغلي»، وتدفع الحطب المتآكل إلى قاع الموقد، ثم تحرك محتوى الوعاء وتسحبه بالعصار. وعندما وصلت إلى أغطية الحشايا الثقيلة استعانت بالعصار وبأمها. جمعت القماش وطوته بالطول ثم وضعت العصار في طرفه. وجمعت أمها طرفه الآخر وشدت عليه بيديها وركبتيها، وأمي تدير العصار حتى آخر قطرة.

يوم الغسيل في صفرو يوم أغبر، تتعرى فيه الغرف ولايكون في البيت طبخ، وتبقى النساء والأطفال في السراويل والقمصان. ورغم أن أمي كانت تسمح لي بغسل ثياب العروسة في وعاء، إلا أنني لم أكن أحب يوم الغسيل. مثل يوم الحمام كان يعطيني شعورا بالعناء والشظف من طلوع الشمس إلى العشاء. وبعد الغسيل يبقى هم النقل إلى السطح والنشر والتقليب والطي. والطي يكون ليلا على ملاية بيضاء فوق البلاط بعد التجبيذ والمسح.

في اليوم التالي وضعت أمي، منذ الساعات الأولى، ملابسنا في صرة وأدوات الحمام في سطل معدني، وتغذينا غذاء المبكر، وذهبنا

إلى الحمام قبل أن يخرج الرجال منه وفاتحة تقول إنها لاتريد أن تذهب إلى الحمام وأمي تغريها:

- لقد جئت بالبرتقال. إيوا للا وسنجلس في غرفة العرائس، وتسقي لنا الماء البارد في السُّطيل، إيوا للا وسأخرجك كالعروس. ويلي امشي! لاأسمعني اللّه حس أصل أبيك ولاحس اليوم الذي رأيتهم فيه. شُف للأك!

على أنني والحق يقال لم أكن أقل منها كراهية للخمام. كان منظر باب الحمام التحتي يملأ نفسي بالبرودة، ولكنني كنت أذهب بدون مقاومة. وفي ذلك الخميس حملت السطل ككل خميس، وسرت في مقدمة موكبنا الصغير في شجاعة.

وصلنا وفاتحة تقاوم وتستغيث. وبقينا في الباب على ذلك الحال حتى خرج آخر رجل يلف رأسه بالفوطة والقلنسوة، ويشد على ياقة جلبابه ويحمحم، فاندفعنا ثم سلمنا أمرنا للّه، ودفعنا الدفة الخشبية السوداء المبلولة، التي يردها حجر معلق في ظهرها، ودخلنا في العتمة والبخار. وعبرنا الغرفة الخارجية ونحن نتلمس طريقنا ودخلنا الوسطى، وتوجهنا إلى غرفة العرائس فوضعنا أدواتنا فيها، ثم تعودنا على العتمة فرأينا أمنا داخلة بالدلوين الخشبيين بعدما ملأتهما بالماء البارد من الصهريج. ومضت تجرهما إلى الغرفة الداخلية، فتركت الصغيرتين وتبعتها. دَفعت الدلوين للبلانة فأفرغتهما في حوض الماء الحار وردتهما إليها، فوضعتهما على الخشبة وقرفصت بجانبها والنساء تفد بدلاء الماء البارد، وكلما أفرغنها وضعنها على الخشبة وقرفصن بجانبها يحرسنها. وأهلكهن الحر فقالت إحداهن:

- إيوا أيامنة؟ إسقي لنا. إننا على وشك الموت.

فقالت:

- لاأسقي حتى يمتلئ الحوض. من منكن لم تأت بالماء البارد ؟

- كلنا جئنا به.

وامتلأ الحوض فقالت يامنة:

- أماكنكن! لاأريد فوضى. سأسقي للجميع.

ولكن ما أن بدأت تسقى حتى هبن واقفات. وبدأ الصراخ والتدافع و «اسقي لي أيامنة»، «دلوي أسبق من دلوها أيامنة»، ثم بدأ التراكض إلى القاعة الوسطى بالدلاء التي يتصاعد بخارها.

جاءت أمي بدلويها وهي تقول:

- أللا ع العدلونيات! لا قوة إلا باللّه! أذى اليد وأذى اللسان.

فقالت امرأة:

- إيوا أ للا قالوا لك حمامهم.

فقالت أمي:

- يفتح الحمام الجديد واللّه يطليه لهم على وجوههم.

وخرجت يامنة فقالت لها أمي:

- أيامنة! سقت لك وجه اللّه، أعطيني دلواً آخر أضع فيه البنت. ستموت لي من الحر.

فقالت:

- تعالي خذيه وإن احتجنا له أرجعيه لنا. غدا الجمعة والناس كلها تأتي اليوم إلى الحمام.

فقالت:

- أخرج البنت وأرده لك.

وتبعتها ثم رجعت بالدلو مترعا بالماء البارد، فأنقصت منه

وأدفأته وزجت بنعيمة فيه وقالت لي:

- تعالي أسبقك لتمسكي لي أختيك.

وبدأت تفركني بقوة، ثم بدأت تسرح شعري ثم تعود فتشعثه، وهي تفرك بالغسول وتعود فتسرح بمشط العظم الدقيق. الشعر طويل والماء يشوي جلدة الرأس وهي تضغط وتسحب. وما رأيت الفوطة حتى كنت قد رأيت النجوم.

جلست على حصير المصطبة وجاءت أمي بالصرة وأخرجت منها صرتنا وأرجعتها للقيمة. وبعد قليل رجعت بنعيمة ووضعتها بجانبي وألبستها ثيابها ثم عادت مهرولة في مئزرها ذي المربعات الحمراء. وكلما فتح باب الحمام ترامى إليَّ مع الرطوبة الدافئة والبخار والضجيج صراخ فاتحة. وعندما أخرجتها قالت لها القيمة:

- هل صنعت لهذه الطفلة شيئا؟ هل كتبت لها؟ هذا الاهتياج كثير.

- أللا صنعت، لم أترك شيئا أشار علي به أحد إلا وصنعته، حتى الجمل مررتها تحته. جئت جمالا في القصيبة وأعطيته ماقسم اللّه وقلت له: «مرر لي هذه البنت تحت جملك. يقولون إن ذلك يعالج اهتياج الأطفال.» ومررها لي، مسكين، (ومسحت وجهها بيدها) ولاشيء. ماذا أفعل؟ لايكبرون حتى يشيبوننا.

تركت لنا برتقالة وقالت لي:

- راقبي أختيك جيدا. إياك أن تدعيهما تخرجان إلى الزقاق أو تعريان رأسيهما.

وقالت للقيمة:

- ديري بالك عليهن أ... ها نا خارجة.

ودلفت من فتحة الباب الثقيل المبلول. وأكلنا البرتقالة ونمنا. وعندما أيقظتنا وخرجنا وجدنا الليل والأضواء في الأزقة والدكاكين ثم وصلنا فتركنا الدلو والصرة في الرواق ودخلنا الغرفة وسقطت كل واحدة في مكانها.

وفي الصباح عندما جلسنا نفطر قالت يما:

- كيف وجدتن الحمام؟

فقالت أمي:

- ضرب العصي! الازدحام وقلة الماء والعدلونيات. جئنا وسقطت في مكاني بالجلباب من جملة الموتى.

- وكيف كانت يامنة معك؟

- لاهذي المرة سقت لي وأعطتني دلوا فوق العدد وضعت فيه نعيمة.

- لقد أدبتها. جاءتني تتطاول فقلت لها: «لاتتطاولي علي! يا من كتصبحي ع المناكس وكتجمعي الهراكس.»

وقالت فاتحة لأمي:

- أطللت عليك في الغرفة الداخلية وقلت ياليت عفريتا يخرج ويقول لي: «اطلبي ما تشائين» فأقول له: «خطافا أرفع به أولائك النسوة ولاأترك عند الحوض إلا أمي.»

فيما بعد بدأت كلما ذكرت فاتحة ذلك أقول لها:

- كان عليك أن تفكري في أن تطلبي من العفريت أن يسقي لنا ويفركنا ويغسلنا.

وقالت أمي لجدتي:

- إيوا جاءت المعلومة. اللي فصندوقا فوقا. إيوا الخريب

والمضمة والشربيل والمحرمة بالطرز الرباطي، المباهاة.

- وتعود إلى الدار وتنسل من القفطان وتعلقه في الحائط. إيوا اللّه؟ الخريب ف الحمام؟ إيوا الحمق هذا!

- وحكاية المرأة التي قالوا إنها تبعتها حقيقية؟

- نعم. قالت للقيمة: «هذي التي تأتي إلى الحمام بالخريب علي وعلي لاأتركها. سأتبعها في التو وأرجع لك بالخبر.» قالت القيمة إنها رجعت وقالت: «داهمتها. طرقت دفة الغرفة ورفعت الستار. إيوا ماتت كما تموت غدا. وجدتها في أسمال لايلبسها الشحات والقفطان معلق في المسمار.»

- وبما عللت زيارتها؟

- بطاسة أخذتها إليها وقالت: «وجدنا هذه في مكانك. هل هي لك؟»

- «بهوت النسا بهتين ومن بهوتهم جيت هارب، محزمين باللفوعا ومخللين بالعكارب.» رحم اللّه سيدي عبد الرحمان المجدوب.

ودخلنا مدرسة البنات، مدرسة تقع بين السور والنهر، صفوفها في واجهة أمامها ساحة طويلة وضيقة، يحدها سياج دونه النهر في مجرى عميق، وفي الضفة الأخرى ظهور بيوت بنوافذ مقوسة وعتيقة، ذات زجاج عراقي ملون وشبابيك مسبوكة.

دخلنا القسم التحضيري معا. جلسنا جنبا لجنب، ووقفت المعلمة الفرنسية في عباءة صوفية سوداء وبشعر أصفر قصير، مسدول، وبدأت تكتب على السبورة وهي تخرج يدها اليمنى من جيب عباءتها المزررة. كتبت أ فقلت: «أ» وكتبت ب فقلت: «ب» فأشارت إلي وقالت:

- تعالي هنا!

فذهبت ووقفت بجانبها على المصطبة ونحن نولي ظهرينا للصف وكتبت س وقالت:

- وهذا ؟

قلت :

- س.

ثم ركبت كلمات قرأتها لها. هي تركب وأنا أقرأ فأمسكتني من يدي وذهبت بي إلى صف البنات فيه أكبر بكثير وكلمت المعلمة ثم قالت لي:

- هذا صفك من الآن.

فبقيت هناك وأنا أشعر بالأهمية. كان نصف ذلك الصف ابتدائيًا أولا، ونصفه الآخر ابتدائيا ثانيا، والمعلمة واحدة. وما أن دق جرس الاستراحة حتى انطلقت نحو فصل الصغيرات في نهاية الواجهة بحثا عن أختي. وجدتها تبكي والبنات يحدقن بها. ورأتني فبدأت تقول:

- ألم تذبحك تلك النصرانية؟

فقلت لها:

- لقد أخذتني إلى صف الكبيرات.

فقالت:

- عندما خرجت بك قالت لي البنت التي تجلس خلفي: «لقد ذهبت بها لتذبحها.»

وهكذا بدأنا نمشي وحدنا إلى المدرسة في أمان اللّه. كانت تقع داخل الأسوار، فلم يكن في الأزقة سوى السابلة والحمير. ولعل أمي أدخلتنا تلك المدرسة عن غير اقتناع لأنها أدخلتنا في نفس الوقت دار المعلمة، فكنا خلال أيام الأسبوع نجلس في الصف المزين بصور الحيوانات، نتعلم الكتابة والقراءة والمحفوظات بالعربية والفرنسية،

وفي العطل نذهب إلى بيت بنت خالها لنتعلم صنع عقد القفاطين، تلك الصنعة التي جاءت بها نساء صفرو من الأندلس بمن فيهن اليهوديات اللاتي طرد المسيحيون أجدادهن أيضا فجاؤوا تلك البلدة وعاشوا فيها، كما في باقي جهات المغرب، في غير ما ود زائد ولكن في تسامح. وكان في نهاية زقاقنا بقال يهودي اسمه إبراهيم، كانت له علاقة وطيدة بجدي وبقي على العهد بعد موته، فكانت جدتي تدخل معه في أحاديث طويلة ثم تقول:

- ليس فيه من اليهودية شيء. يبيعني بالطلق ويصبر علي ولا يقول: «أين نقودي؟» ولو بقيت معي عاما.

ثم تسر لنا في صوت مشرب بالخطورة.

- ظني أنه أسلم وأنه يخفي إسلامه. في عرس بوعزة مرت الزفة بدكانه فخرج ونثر علينا الملبس. اليهودي لايفعلها مع المسلم أبدا. أقطع يدي إن لم يكن يخفي إسلامه.

كانت تعرف كيف تهول وتجمل وتستلب المستمع وتبقيه كالمخدر لا يفتح فمه إلا ليقول: «إيوا؟ إيوا زد!» لذلك كنت في القصيبة أنتظر زياراتها بشوق إلى فن الحكي ذاك الذي تتملكه نساؤنا.

كان بيت معلمتنا داخل الأسوار أيضا ولكنه كان بعيدا شيئا ما. ولاأعرف كم احتجنا من الوقت لتعلم الصنعة واكتساب الملكة.

تتشكل العقدة من ثلاثة أدوار. وكانت المعلمة تصنع التكويرة وهي الهيكل، من مربعات ورق صغيرة تطويها على شكل مثلث، تبلل رأسه بريقها وتبرمه على خيط مشمع حتى يحاذي القاعدة، فتلفه على رأسي مسمار مخروط وتشد الخيط المشمع حوله، ثم تقطع الخيط وترمي بالتكويرة في طبق صغير.

وكانت تغزل الحرير وتلفه حول جعبة قصب صغيرة تضعها على فوهة غلاية تفور ليتماسك الحرير المغزول. بعد ذلك تقيس حول يدها مقدار فتيل، وتلف عل ذلك المقياس بين أصبع قدمها وسبابة يدها اليسرى لفة تقص طرفها وتربطها تم تضعها على ركبة المتعلمة، وتضع في طبقها التكوير الكافي.

كانت ترتب البيت وتغسله وتطبخ في الصباح، وفي آخر النهار والليل تقص أذناب الفتائل من العقد ثم تنظمها فيما يسمى بالعجمي الذي يحتوي على مائة وعشرين عقدة، وهو العدد اللازم لكل قفطان. كنا أربع بنات نصنع لمعلمتنا في اليوم مالا يقل عن أربعة عجامى.

ومع أنها قريبة أمنا، بدأنا نخشاها عندما أصبحت معلمتنا، وبدأت أمنا تهددنا بها: «افعلي وإلا قلت لمعلمتك!»، «اتركي وإلا قلت لمعلمتك!» كانت تحتفظ بقضبان السفرجل ولكنها لم تكن تضرب. كانت تلعن فقط وتقرص في الفخذين قرصا ساما كالتعقيم يطول ألمه ويبقى أثره. كان بيتها تقليديا مزلجا، فيه ثلاث غرف تسكن إحداها أخت زوجها وهي كهلة مطلقة تربي حفيدتها التي كانت تتعلم معنا.

فيما بعد ولسبب أجهله أرسلت إلى بيت معلمة أخرى وهي بنت عم أمي حيث كنت المتعلمة الوحيدة. كانت كبرى إخوتها، وكان لهم بيت مجاور لبيتنا وآخر في بستان خارج البلدة كانوا يقضون فيه الربيع والصيف. وكانت تستيقظ في الفجر فتعجن وتطبخ وتغسل الدار ثم تجلس لصنع العقد. وكان في البيت الآخر غرف واسعة ونوافذ مقوسة تطل على البستان على غير عادة البيوت المغربية، وقمريات في أعلى الحيطان السامقة يغطيها جبص مخروم يصفي الضوء، وحمام يقول :

«اذكر اللّه.»، «اللّه!» في حين يقول الخطاف: «رجلي شرى العبروق، الشريكة تجر وأنا نجر قال خررررّق». وكان في وسط الدار سقاية تملأ معلمتي من مائها الخوابي قبل أن يظهر ضوء النهار، تصفيه بكتان أبيض.

وفي الخريف رجعوا إلى بيتهم في البلدة، فجاءت نساء الزقاق واجتمعن في فنائهم للعمل والحديث. جاءت كل واحدة بطبقها وفتائلها ووسادة جلوسها وقالت إحداهن:

- خدوج! إيوا تزوج أخ زوجك!

فقالت:

- عسى أن تكون الأخيرة.

- الأولى قال موسوسة.

- يقولون إنها كانت تغسل الفحم. يقولون الفحم لم يكن يدخل دارها حتى تغسله.

- إيوا وبنت بوكلاب؟

- هذيك كانت متجبرة بجمالها.

- قالوا لك كان يضربها.

- كانت تستفزه. يدخل بعد العصر في رمضان فتقول له: «أ من طاح له سبسي تاب اللّه عليه!» و «المغرب ماز... الة!» وهو، مسكين، يدخن الكيف فكان يضربها.

- قالوا لك طلقها بسبب الكسل. كانت لا صنعة ولا شغل. جمالها! أللا زينك مليته حبيت حايك نتلوى فيه. كان يقول لها: «اطبخي لنا حريرة الليلة» فتقول: «الحريرة لها شروط. يلزمك أسيدي اللحم، ويلزمك أسيدي العدس، ويلزمك أسيدي الطماطم والشعرية،

ويلزمك ويلزمك... وتبقى تكوم عليه حتى يقول: «لا أريدها. ستجعلين الجرعة بريال.»

ـ كانت حمقاء وكان حشاشا. قطع اللّه الكيف. كم خرب من بيوت وأهلك من نفوس.

ـ حقا، بنت الغول، مسكينة، بكل جمالها وشبابها تركها عبرة.

ـ تلك مسكينة حماتها هي التي قضت عليها. أعطتها «شدق الجمل[1]» في التينة في السطح.

ـ إيوا هذيك باباها. لماذا أزوج بنتي وأسلمها لزوجها وأشترط ألا يدخل بها حتى تبلغ؟

ـ مازالت الناس تعيش في العصر الحجري.

ـ إيوا الحاصل خدرتها الحماة ليدخل بها الولد. وعندما أفاقت اختل عقلها.

ـ زادت على القدر. ومنظر الدم عندما أفاقت البنت... إيوا ذهبوا فيها كلهم إلى السجن.

ـ بنات الغول أصابتهن عين لم تصل على النبي. زبيدة سرق زوجها خزنة صديقه وغربها في بلدان الناس. وعائشة بقيت لا هي مع الأحياء ولاهي مع الأموات.

ـ العين، حسبي اللّه ونعم الوكيل! لم يبق أحد لم يتقدم لخطبتهما. الأولى خطبها يحيى بن حرازم...

ـ ابن حرازم الذي مات في الملاح[2]؟

---

(1) الأفيون.

(2) حارة اليهود.

- لا. هذاك اسمه... كذا كذا بن حرازم، ميتة ذاك، حسبي اللّه ونعم الوكيل، لايتمناها العدو لعدوه. كانوا يسكرون في الملاح وأم كلثوم تصدح في الغرامافون بوحقك أنت المنى والطلب.

- ... قالوا لك ألاّ خرج ابن حرازم إلى المطاهر فاختل توازنه وسقط من الرواق في الطابق السفلي فمات لتوه. حسبي اللّه ونعم الوكيل! مات مخمورا وفي الملاح. كثرة الهم تضحك. قالوا لك إنهم سمعوه يسقط فأوفدوا أحدهم ليرى فتأخر فنادى آخر: «ياك شي باس ماكا؟». فرد عليه: «لواه كا ابن حرازم راه تكا.»

- اليهود، أعز اللّه الملائكة، يصنعون الجعة. عندما يقطرون التين لايقوى أحد. تعم البلدة رائحة كريهة. يصنعون الجعة في بيوتهم ويبيعونها للمسلمين ولا يستطيع أحد أن يقول ممنوع. التاجر يهودي وعمار الحشايا يهودي ومن يربط القصع يهودي ومن يشتري القديم يهودي. يمر في الأزقة وهو ينادي: «للاّ تشريوا شي؟ للا تقضيوا شي؟» ثم بدأ أحرقه اللّه يقول: «تعالوا تشروا شي؟ تعالوا تقضوا شي!» فكانت جدتي رحمها اللّه تقول: «اسمعوا موشي! يقول تعالوا حتى لايقول للاّ للمسلمات.»

- يستأجرون المزغردة في الأفراح والنائحة في المآتم. تأتي النائحة إلى جنائزهم وتطبل على المائدة الواطئة وتعدد واليهوديات يبكين ويندبن خدودهن.

- اليهودية تلبس «الحنطوز» وتصل شعرها بضفائر الصوف.

- هل تعرفين أصلها؟ إنها شعر زوجة سيدنا نوح، قصته اليهودية ووصلت به شعرها.

- وهل كان هناك يهود أيام سيدنا نوح؟

- اللّه أعلم. سمعنا ذلك من آبائنا وسمعوه من آبائهم. اللّه أعلم.

- صيامهم يوم في السنة.

- وتسمين ذاك صياما ؟ يصومون ويأكلون اللب. طول النهار وهم: «تف، تف»، ينفتون القشرة.

وجاء نداء من آخر الزقاق فعمت الفوضى وبدأن يقلن:

- الفاسي، الفاسي مول العقد.

وضعن أطباقهن وبدأن يتراكضن إلى الخارج. ووضع الفاسي أكياسه على الأرض وبدأ يأخذ من كل واحدة عقدها ويدفع لها جعب الحرير ويحاسبها ثم حمل أكياسه وولى وبدأ نداؤه يأتي من الزقاق الموالي ويشتبك مع قرع جرس السقاء وأغنيته التي يقول فيها:

أنا غريب وأنا بأهلي يا لحباب.

وأنتما يا لحباب ما تسالو ف اللي غاب.

فقالت امرأة:

- كلمات بابا السقاء هذه تقبض نفسي.

وقالت أخرى:

- حكايته حكاية. مسكين! يقولون إنه كان تاجرا في فاس عندما حل به ما حل. أخرجنا اللّه من دار العيب بلا عيب. تزوج ابنته، مسكين! فقالت النساء:

- إيه، مسكين!

وواصلت الأولى:

- هو صحراوي، من درعة ومن ثم سوادة. قالوا لك طلق زوجته وهي حامل عام المجاعة فجاءت إلى فاس وبدأت تعمل في أحد البيوت. ووضعت بنتا. وذهبت أيام وجاءت أيام وماتت الأم وبقيت البنت في ذلك البيت حتى كبرت ثم جاءت الأقدار ببابا فاستقر في ذلك

الدرب من دون كل الدروب حيث بدأ يبيع الحمص. ورأي البنت فأوقع الشيطان في نفسه أن يخطبها. إيوا خطبها وتزوجها وذات يوم بدأ يسألها عن نفسها فقالت: «أنا من القصر الفلاني في المكان الفلاني وأمي فلانة الفلانية، طلقها أبي وأنا في بطنها في عام المجاعة...»
«اللّه! اللّه! اللّه!»

إيوا بدأ يضرب رأسه في الحائط ثم ذهب إلى العالم فقال له:
«تطلقها وتهجر البلد وتبقى تبيع الماء حتى تموت.»

فقالت النساء:
- لاحول ولاقوة إلا باللّه العلي العظيم!
ووقعن في تأمل نشطت فيه الإبر حتى طرق الباب وقال عم أمي:
- اعملوا الطريق!
فغطت الغريبات رؤوسهن بطرف منصورياتهن وأولين وجوههن للحائط وقالت زوجته:
- جز (نطقت الجيم بالطريقة المصرية).
فمر إلى الطابق العلوي وهو يشيح إلى الناحية الأخرى وبدأت خالتي الهاشمية تضحك وتقول:
- تذكرنني بزبيدة بنت عمي رحمها اللّه. جئت بشبكة شعر من القصبة محبوكة بالحرير الأسود وأعلاها حرف كالهلال، كحرف القبعة العسكرية الفرنسية، مزكرش، فقالت لي زبيدة: «تبيعيها؟» فبعتها لها فلبستها، مسكينة، ونزلت فجلست في ذاك المكان. لو كان يتكلم لحكى لكن هذه الحكاية. وشرعت تعمل عقدها. وطرق الباب فنزعت الشبكة من رأسها ودستها تحت فخذها وهي تقول: «من؟» (قرنت خالتي بين القول والإشارة). وبقيت ذلك اليوم كلما طرق الباب تنزع

الشبكة وتقول: «من؟» وفي اليوم التالي نزعتها نهائيا وأودعتها الصندوق.

وقالت امرأة:

ـ عندما ماتت رحمها اللّه قالوا للحسين: «تزوج الهاشمية» فقال: «بنت خالي وفي قلنسوة جلبابي كخبز السوق. ألف، ألف وعندما لا أجد أعود إليها. لن يكون علي حينئذ إلا أن أمد يدي إلى قلنسوتي وأسحبها.»

فقالت مغيظة:

ـ وهل تزوجته؟ عندما خطبني قالت له أمي: «بسبب تلك القولة ياحسيسن أذبحها في المجرى ولا أزوجها لك. بنتي أنا خبز سوق؟ آ؟

ـ لسانه أحد من موسى والتفخيم والكلام بالفصحى والاستشهاد بالكتاب والسنة.

ـ تقول أمي إنه منذ صغره وهو: «قال اللّه. قال الرسول.» وأن أبي رحمه اللّه كان يقول له: «أراك كتصحف!» ويشتبكان فتقول للا الداودية، مسكينة، رحمها اللّه: «ويدي الحسين!» كانت مسكينة، تنطق اللام دالا «ألا تريد أن تنتهي من الخوض في كلام اللّه والرسول بغير علم؟»

لم تكن جدتي ولا أمي تحضران هذه الجلسات لأنهما لم تكونا تعملان العقد، ولكن جدتي نظمت أمسية في سطح بيتها حضرتها الجارات. تركن الشغل وجاءت كل واحدة بشيء: السكر، الشاي، النعناع، الخبز، القديد، الزيتون، السمن. وما أن استقر بهن المقام حتى طرق باب الدار فأطلت يما على الفناء وقالت:

ـ من؟

فقالت امرأة:

- قريب.

فالتفتت إلى النساء وقالت:

- خلا داري، الشريفة. جاءت تسوق وجه الرسول كعادتها. إيوا ها! وضعت سبابتها على فمها علامة الصمت ونزلت. أدخلتها والمرأة تقول:

- أ المحبين ف النبي، رسول اللّه جا لداركم.

وجدتي تقول:

- أستغفر اللّه! سيدي رسول اللّه شأنه عظيم، ادخلي ياللا خدوج ادخلي.

- أنا بنته وقبس منه وحب ذريته من حبه. أنا أعرف أنك أفاطمة الجيلالية تسارعين للخيرات ولذلك جئتك. هناك بنت يتيمة ومسكينة ستتزوج وتحتاج لوسادتين من الصوف وبطانية بلدية من الصوف. أعطينيهما وأنا أضمن لك قصرا في الجنة.

- ارجعي غدا وسأدبر لك شيئا.

- لا أخرج إلا بما ماطلبت. خافي على نفسك! إن من ردني أغضب الرسول. لقد جئتم بفراش فاطمة فهلا زكيتموه؟

وأعطتها جدتي وسادتين من فراش أمي فخرجت وصوتها يجلجل. ورجعت جدتي فقالت امرأة:

- تلوي ذراع الناس بالرسول. بنت الشحاتة! «رسول اللّه جا لداركم!» أستغفر الله العظيم! لا يشفع فيها إن شاء اللّه. تلوي ذراع الناس بشرفها.

- ليس هناك لاعروس ولايتيمة وإنما هي تتسول كالعادة وتعطي لابنتها. يقولون إن في بيت ابنتها حشايا من الصوف إلى هنا.

- لا تتسول إلا الصوف.

- لايفوتها عرس ولا جنازة. في الأعراس تضرب على الرق وتغني: «عز الله الشرفا، فاين ما كانو ولاد سيدي رسول الله.» أولاد سيدي رسول الله على الراس والعين ولكن ليس بهذه الطريقة. «أنا شريف وأنت عامي.» ألسنا كلنا مسلمين؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم بريء منها ومن أمثالها.

حينذاك تدخلت جدتي قائلة:

- وجريرة أخرى من جرائرها: «هذه البنت صغيرة وهذه كبيرة.» مثل بنت المكي التي تدعي أن بناتها صغيرات وبنات الناس كبيرات.

- كأننا سنطبخهن. ماذا يعني الناس في أعمار بنات الناس؟

- عروس ويتيمة! ليس هناك في البلدة كلها عرس واحد.

- ليس هناك سوى خطبة سيدي محمد.

- تلك أخفوها وفاح خبرها.

- خائفون من الزوجة الأولى.

- ولكنهم اشترطوا عليه الداخلة بالخارجة.

وسألت أمي عن معنى الداخلة بالخارجة فقالت:

- اسكتي. عندما يكون الكبار يتكلمون لاتتكلمي.

وسكت فظلت تلك العبارة تحيرني حتى كبرت وفهمتها وحدي.

- انتظر كل هذه السنين ليتصرف. المسكين أفنى شبابه مع الفاسية وهي في سن أمه.

- أمه سامحها اللّه. ذهبت مع زوجها إلى فاس لتركب أسنان الذهب فأخذهما الفاسي، صانع الأسنان، إلى بيته وقدم لهما فتاة جميلة ويافعة.

- وبأية مناسبة ؟

- قالت له إنها تريد أن تزوج ابنها فخطبت منهم تلك الفتاة. وفي يوم العرس بدلوها. جاؤوها بأخرى، عجوز شمطاء، حسبي اللّه ونعم الوكيل! انقلب العرس جنازة. إيوا طارت الأم إلى السماء فوجدتها بعيدة ونزلت إلى الأرض فوجدت نفسها فيها. قالت: «بدلوها ! ليست هذه من أروني.» كان الصداق قد دفع والعقد قد كتب والعرس قد أقيم والولد قد صرف شقاء عمره.

- ولماذا يخشونها الآن ؟

تأهبت جدتي لإعداد الشاي. خلعت مئزرها وأسدلت ثوبها على سروالها الأسود فقالت لها امرأة.

- مازلت تلبسين السروال الأسود ؟

- الشكوى لله إن لم أفعل أمرض.

- هل ذهبت إلى عرافة؟

- أية عرافة؟ تلك التي تعبر الدروب وهي تنادي: «تضربوا شي فال؟» كون كان الخوخ يداوي كون داوى راسه.» ذهبت العرافة مع أهلها. الله شاهد علي، عمري ما استشرت عرافة اللهم إلى قريعة الأنبياء، يقرأها لي السي المختار. ذهبت العرافة مع أهلها، زمان كنا نقيم المحلة ونرى كل شيء بأعيننا.

- هل حضرتها ؟

- نعم: للا فاطمة كان زوجها في الحج، ودار العام ولم يعد، وامرأة أخرى طال بطفلها المرض فأعددنا الكور، كورا لا أعرف من أي شيء صنعوها. كنت صغيرة. قالوا: «هذي كرة فلان» و «هذي كرة فلان» وخرجنا نستدعي الجن في النهر ببذور الكزبرة وأسنان النداف وعندما أمسك الليل بالليل وحلف الليل ألا يطلق الليل أوقدوا النار في

مجمرة كبيرة وضعوها في الفناء في صمت. من يخاف لم يبق في الدار. وصعدوا إلى الطابق العلوي. قالوا: «هذي كرة فلان هل هو حي أو ميت؟» ورموها في المجمرة فرأيناه أمامنا يطوف ويسعى ثم غاب فرموا الكرة الثانية وقالوا: «هذي كرة فلان» فظهر نعش صغير جاء رجلان، حملاه وذهبا به.

- يما فاطمة، احكي لنا حكاية الجنية، باسم اللّه الرحمان الرحيم، التي سرحت شعرها.

فضحكت جدتي وقالت:

- كنت مسهدة ذات ليلة فرأيت جنية، باسم اللّه الرحمان الرحيم، تتجلى في الغرفة هي وبناتها. تربعت وشرعت تسرح شعر بناتها على التوالي ثم سرحت شعرها وأنا أغطي رأسي بالبطانية وأنظر من ثقب فيها. وجدلت شعرها وعقدت منديلها ثم لفت المشاقة على أصبعها وأدخلتها في ثقب اللحاف، في عيني.

ضحكن وقالت إحداهن:

- ظلها خفيف.

وقالت أخرى:

- ولكن لماذا لا يظهرون لنا؟

فقالت جدتي:

- في أيامنا كان الظلام أما اليوم فالكهرباء في المراحض والأزقة وفي كل مكان، الآن يخافون.

- يما فاطمة تبارك اللّه تولد وتزيل النفس وتفك الربط.

فقالت جدتي:

- البركة من اللّه. لايعدو الأمر أن يكون شبا وحرملا و «العين الدقة والعين الزرقة والعين اللي ماصلت عالنبي تنفقا» و «عين الشابة

في الدابة وعين العكوزة في البدوزة.» أما فك الربط فليس هناك إلا تسخين الماء على نار بقايا قفف من مقابر اليهود، وغسل البنت في كهف المومن. اللّه شاهد علي، عمري ما استشرت عرافة، اللهم إلا قريعة الأنبياء، يقرأها لي السي المختار. ذهبت العرافة مع أهلها.

رأيت ذلك المظهر من جدتي عشية السطح تلك التي اختلط فيها أريج الشاي برائحة القديد المشوي وبالحديث والحكي. ثم نظمت جدتي أمسية أخرى. بعد أيام أصبحنا وقد أخرجت كل ما في غرفتها وبدأت تحك البلاط بمكنسة الدوم القصيرة وتصب الماء على الحيطان والأركان وتغني وهي رائحة غادية، عن بارود في حدود مكناس و«مريكان» جاء بالخوذ ، وأغنية أخرى تقول فيها:

كاعدة في داري في راحة الله
أللّه أ مولاي.
جايين العديان يطلوا علي
أللّه أ مولاي.
اعطيهم يا ربي غير ما بغاو لي
أللّه أ مولاي.

كان عشاء جدتي لحم خروف باللّفت البلدي والكزبرة وسلاطة الفلفل والطماطم والبطيخ ولم يكن هناك غيرنا فقال أحدنا:

- عشاء على شرف أنفسنا.

- شأن عمي ذكره اللّه بالخير.

وجعلوا يضحكون فقالت جدتي:

- أحضر عمكم الدجاج واللحم والبطيخ والبطيخ الأحمر ودخل على بنت المكي وقال:

ـ خدوج! هاك!

قالت:

ـ من سيتغدى عندنا ؟

قال:

ـ القايد.

إيوا بنت المكي يا من لايعرفها! أخرجت أواني اليوم الكبير.

وصلى الظهر ودخل يقول:

ـ أين الغذاء ؟

قالت:

ـ وأين القائد ؟

فأشار إلى صدره قائلا:

ـ هاهو!

أزاحت جدتي المائدة وأحضرت صينية الشاي. كانت آنية السكر مملوءة بحيث كانت منفرجة، تظهر منها قطع السكر التي قصتها في النهار بالقطاعة والمطرقة. ثم لفت الفتات الناعم في الورقة البيضاء وطوت الورقة الزرقاء ولفت الخيط وخبأتهما.

وبعد العشاء حكت لنا ألغازا نعرفها ولكن ذلك لم يكن يهم.

قالت:

ـ حاجيتك على للا زينة الريش والريش داير بها. ماتنباع ماتنشرى ماينعطى مال فيها:

قلنا:

ـ العين.

ـ حاجيتك على جوج خواتات متشابهات، واحدة للدق والغوات

وواحدة لفرايج والخرجات.

- حلق الباب وحلق الأذن.

- حاجيتك على راه راه مارينا، قطع سكة وقطع مكة وقطع ويدان الشاوية، طوى يديه مع رجليه ودخل للدار القاعية.

- الهلال.

- حاجيتك على اللي جا لباب الجنان وعيط أ موسى خرج له متقوب الرويسة.

- التين.

- حاجيتك على اللي جا لباب الجنان وعياط أفلان، خرج له كحل عريان.

- الباذنجان.

كنا نلعب العديد من مثل هذه الألعاب مع الكبار تلك الأمسيات. كنا مثلا نضع قبضاتنا بعضها فوق بعض ويشير أحدنا إليها من تحت لفوق وهو يقول:

- دمن هاذ القبة؟

- د السلطان.

- آش فيها ؟

- الخوخ والرمان.

- فاين حقي؟

- كلاته القطة.

- فاين القطة؟

- في الزرب.

- فاين الزرب؟

- كلته العافية.

- فاين العافية؟
- أطفاها الما.
- فاين الما؟
- شربه الجمل.
- فاين الجمل؟
- ذبحته السكين.
- فاين السكين؟
- عند الحداد.
- فاين الحداد؟
- مشي يسخّر طاحت عليه السخرة.

كنا كذلك نلعب: «إلا جاك غراب عطيه قراب (جراب) وإلا جاوك جوج غربا عطيهم جوج قربا كما اعطيت لغراب قراب. وإلا جاوك ثلث غربا عطيهم ثلث قربا كما اعطيت لجوج غربا جوج قربا كما أعطيت لغراب قراب...» وهكذا ومن يصل إلى أعلى عدد دون أن يتلعثم أو يخطئ يكون هو الفائز.

وكان الكبار يقولون لنا في تلك الأمسيات أيضا:
- ياخريفة يا جريفة كباب ف الزليفة شكون دي ياكله؟
- فنتسابق لقول:
- أنا.
- ياخريفة ياجريفة الدجاج محمر ف الزليفة شكون دي يأكله؟
- أنا.

فيما بعد بدأت سعاد تتنذر بذلك وتقول:
- المدينيون يعلمون أبناءهم الأنانية المطلقة منذ الصغر.

فأقول.

- وسعة الخيال.

تلك الليلة قالت جدتي للسي المختار:

- أحضرت قريعة الأنبياء؟ إني أجد تهاطالا في كل جسدي.

وفتح كتاب قرعة النساء في صفحة الفهرس فأغمضت عينيها ووضعت أصبعها في مربع الخانات فقال:

- مولاتنا مريم.

ووجد الصفحة وقرأ:

سهم أمنا مريم رضي الله عنها

وهو سهم مبارك مسعود والعز في جميع الأمور. اعلمي أيتها السائلة الأمر الذي تريدينه ونويت عليه اعزمي عليه وتوكلي على اللّه، فإنه مبارك عليك ومسعود، وتنالي مرادك منه غاية المراد، ولابد لك من غيار كبير يقع عليك حتى تشفقي على نفسك منه وينجيك اللّه منه، ولابد لك من تبديل الزوج وتقفين على الفرض من الأزواج واللّه أعلم، ولابد لك من الانتقال من مكان إلى مكان، ولابد لك من زوج تتزوجينه غير هاني يميل لغيرك، ولابد لك من حجاب يكون معك، لكن احفظي لسانك تنالين مرادك، ولابد لك من مرض كبير يجوز عليك وتنجي منه سالمة، وعندك امرأة تكرهك وتريد مرضك وفراقك من بيتك، فحصني على نفسك تنجين إن شاء اللّه، فاحمدي اللّه وكوني من الشاكرين.

وانتهى فقالت:

- أعرف المرأة التي تكرهني وتريد مرضي. إنها بنت المكي.

ولكنها لم تعلق على قول إنها ستطلق وتقف على الفرض وهي أرملة، ولاعلى قول إنها ستتزوج بفمها الأدرد وشعرها الأشيب. وقلت :

- أريد أن أعرف سهمي.

فعاد إلى الفهرس وأغمضت عيني ووضعت أصبعي في مربع الخانات وقرأ:

سهم أمنا عائشة رضي الله عنها

وهو سهم مبارك مسعود عليك أيتها السائلة. الأمر الذي تريدينه ونويت، إعزمي على ماتريدين وتوكلي على اللّه فإنه مبارك عليك ومسعود وتنالي منه خيرا كثيرا إن شاء اللّه، ولكن تكون كثيرة الأمراض، كلها من النفس قاصرة فيها، ولسانها حلو ويخاف عليها من الشريكة ومن رياح الجان ومن التابعة، ولكن تحصن على نفسها بحجاب عظيم تنجو من كل ماتخافه واللّه أعلم، وأرى الناس يحسدونها وأعداؤها كثيرون، واكتمي أمورك ولاتطلعي عليها أحدا، واطلبي ما تريدين تجديه إن شاء اللّه، فاحمدي الله وكوني من الشاكرين.

بعد ذلك طلبت من يما أن تحكي لنا حكاية هل العاشق ينام فقالت:

- إيوا صلوا على النبي.

- صلى اللّه عليه وسلم.

- كنت مريضة بعيني وكانت أمي رحمها اللّه قد دقت النعناع ووضعته لي عليهما تحت عصابة. كنا قد تعشينا وكنا في الفناء وأنا أتوسد ركبة أمي. كان هناك أخي سيدي محمد رحمه اللّه. كان أصغر مني بعام وزوجة أخي من أبي، كانت جميلة. وبينما نحن كذلك سقطت حصاة في الصينية فقالت أمي:

- للا! للا! من أين جاءت هذه الحصاة؟ ليس فوقنا إلا السماء.

وارتعشت جدتي ومسحت بيدها على ذراعها كعادتها كلما وصلت إلى هذا المكان وقالت:

- للا الذات كتشوك.

ثم واصلت:

- عندما قالت أمي ذلك قالت لها الكنة:

- احكي لنا أللا طامو حكاية هل العاشق ينام؟

فسقطت في الصينية حصاة أخرى. كان الرجال في البستان يسقون لأن نوبتهم في الليل، فقامت أمي وقالت لها:

- تعالي يا فلانة نمي الليلة معي.

ولكنها رفضت فحملتني ودخلنا غرفتنا وأوصدناها علينا بالمزلاج، وصعدت هي إلى غرفتها في الطابق العلوي. وعندما جاء الرجال في الصباح حكت لهم أمي ما وقع. كان في الدرب شاب جميل أيضا اسمه بّا سيدي، كان عندما يمر يسعل فتهرع زوجة أخي إلى الباب من حيثما تكون، تطلب من طفلة ما أن تملأ لها سطلا صغيرا من الينبوع العمومي، ففطنت أمي تلك الليلة أنه هو الذي جاء عبر السطوح لأنه يعرف أن نوبة السقي فينا. وحلف أبي بالثلاث ألا تبقى في عنق ابنه فطلقها.

قلت:

- وحكاية قاروْرة العطر؟

- تلك وقعت لزوجة أخي الآخر. كان جميلا وزير نساء. وكان مع جماعة على شاكلته، يسهرون في بيت ابن أخ الباشا وصهره، فكانت زوجته، بنت الباشا، تبعث خادمتها السوداء لأمي:

- أللا طامو قالت لك للا إنها تشعر بمغص، ماذا تصنع؟
- قالت لك إنها أصيبت بالزكام ماذا تصنع؟
- قالت لك إنها أصيبت بصداع ماذا تصنع؟
وأمي، مسكينة، تجيبها في كل مرة:
- قولي لها أيما تشرب الكامون.
- قولي لها تشرب الزعتر.
- قولي لها تضع خليط أصفر البيض والطحين على صدغيها تحت دائرة من ورق السكر الأزرق.

وذات يوم أرسلتها إليه في الدكان:
- تقول لك للا لا تشرب الشاي الليلة لأنها ستضع فيه منومًا كَيْ تتمكن من رؤيتك، وإلا اتهمتك بمراودتها عن نفسها.
إيوا وبنت الباشا. بعد ذلك بدأت كلما سافر زوجها ترسل له فيذهب. باسيدي ذاك الذي طلقت زوجة أخي الأكبر بسببه كان يسكن قبالة بيتها فرآه من كوة يدخل فأخبر زوجها ثم قال له:
- قل لها إنك مسافر وتعال لترى بنفسك من الكوة.

إيوا كذلك كان، إيوا عزم أن يردها له فبدأ يرسل الخادمة السوداء إلى زوجة أخي إلى أن قالت:
- إني ذاهبة عند أهلي. قولي له أن يأتي غدا عند الظهر إلى دار خالتي. سأكون هناك.
كانت بلهاء، مسكينة.
قلت:
- بلهاء وتخطط الخطط؟
- بالفعل بلهاء، ماعلينا. جاء عند الظهر يحمل الطنجية. وكان

من عادة أهل حيهم أن يجلسوا في بابه ينتظرون الظهر. إيوا رأوه في تلك الهيئة فقالوا:

- ما الذي جاء به إلى حينا؟ لعله جاء ليدنس شرفنا.

فتبعوه. معروف بفجوره. ورأوه يدخل تلك الدار. ها أخ زوجة أخي يعود من عمله. قالوا له إن فلانا قد دخل الحي فقال:

- ليدخل. ماشأني به؟

وصل إلى بيتهم وسأل عن أخته فقالوا له:

- ذهبت لتتغذى عند خالتها.

ففطن. كانت خالته سيئة السمعة. خرج من توه واقتحم بيت الخالة وبدأ يفتش، ثم صعد إلى الطابق العلوي فوجدهما، حسبي الله، في حالة تلبس. إيوا الرجل هرب وهي جرها من شعرها في السلم وفي الأزقة، حسبي اللّه ونعم الوكيل، سافرة وبدون سروال حتى أوصلها البيت ثم بدأ يضربها بالحبل.

إيوا جاءت أمي لتعود بها ووجدتها تقيء الدم ومع ذلك سمحوا لها بأخذها. وبدأ أخي رحمه اللّه يجد الناس تتكلم في الشارع حتى إذا مر بهم وقال:

- السلام عليكم!

قالوا:

- وعليكم السلام!

ثم لاذوا بالصمت فداخله الشك. وذهب إلى صديق حميم قص عليه ذلك فقال له القضية فيها وفيها وفيها، والناس لاحديث لها إلا حديثك. قال أخي:

- إنه إنما أراد أن يردها لي وزوجتي بلهاء.

وعاد إلى البيت وصعد إلى الغرفة وفتح صندوق زوجته وبدأ يبعثر مافيه فوجد قارورة عطر. قال:

- ماهذه يا فاجرة؟

خرج إلى باب الغرفة ورمى بها إلى السطح فسقطت في صحن بيت مجاور كان صاحبه هناك فقال لزوجته:

- تبارك الله! بدأ العشاق يرمونك بقارورات العطر. علي بالحرام لاتبقي في عنقي.

قامت قيامة أخرى في ذلك البيت ثم وصلنا الخبر فذهبت أمي، مسكينة، إلى صاحبه وقالت له:

- إنه ابني، تخاصم مع زوجته ورمى بتلك القارورة.

وأقسم أبي رحمه اللّه بالثلاث ألاتبقى زوجة أخي في بيته وقال:

- تخرج على الحلال والحرام.

إيوا ذهبت إلى بيت أبيها فقال لها:

- بيتي حرام عليك.

فقام بعض أقربائها وقالوا إنها امرأة، وإنهم لن يتركوها في الأزقة فأدخلوها. كان أخي رحمه اللّه في الدكان عندما جاء صاحب الدار التي كانت فيها. قال لك ألا ضربه بتميمة بين كتفيه. قال أخي ألا كأنما جلا زجاجة. جاءني وانكب على وجهه يبكي.

- مالك ياأخي؟ مالك؟

قال:

- أردها. وقد جاءني قريبها وقال إنهم سيأتون بها غدا.

- إيوا؟ وبابا؟ والحلف؟

إيوا ذهبت إلى أمي وأخبرتها، وفي اليوم التالي في الموعد المضروب جاءت بها امرأتان. كان أبي قد شاخ ولم يعد يصلي عدا الجمعة إلا في الدار. قال المؤذن: «لا إلاه إلا اللّه!» وكبر أبي للصلاة فدخلت المرأتان وارتمتا عليه ولفتاه بجناحي حجابهما الصوفي. قال:

- لو جئتما في ابني لذبحته ولكن هذه... حلفت.

قالتا:

- صم ثلاثة أيام.

إيوا أرجعوها.

كنا ثلاث صديقات في المدرسة، هنية وفطومة وأنا، وكنا نتبادل الزيارة في العطل ونقتسم طعامنا في نزهة المدرسة أيام الأربعاء في مغارس الزيتون في سيدي بومدين. كان كل من في المدرسة التي انتقلت إلى بناية كبرى خارج الصور يخرج في تلك النزهة في صف طويل بعدما يكون قد هتف للمديرة بالفرنسية: «مادوموازيل بيرانغي، النزهة من فضلك!» وأنا الآن لاأعرف لماذا كانت الآنسة بيرانغي تنتظر حتى يُهتف لها.

وكانت لي في زقاقنا صديقة اسمها للا آمنة، كنت ألعب معها الحجلة في ساحة الفرن ونحن ننتظر خبزنا منذ أن تطرح الدفعة الأولى من العجين وينادي الطراح: «الصلا ع النبي!» إلى أن نكتشف أنه تسلل مرة أخرى بخبزنا إلى بيتينا ليأخذ الكسرة.

وفي ثاني يوم عيد الأضحى جاءت للا آمنة بمجمرتها الصغيرة وقدرها وبلحمها وتوابلها والتحقت بنا نحن الأطفال في السطح، ثم بدأت كل واحدة تسأل الأخرى أن تذوق لها المرق فتقول: «زيدي الملح» أو «مالح كالداء.»

زيادة على نزهة السطح وأمسيات غرفتها، جمعت جدتي جاراتها في نزهة من نوع آخر، إلى سيدي على بوسرغين. صعدنا إلى هناك في جماعة من النساء والأطفال، نحمل الأغطية والصواني والسلال. تسلقنا الجبل إلى قمته حيث الضريح الذي يقال إنه يشفي من الجنون. كان كل شيء في تلك الطريق أليفا، تربة الجبل الصفراء وأزهاره البرية وسدرته وأغنامه الشاردة. ثم بدت البلدة من خلال شباك نافذة الضريح، بيضاء وسط الخضرة فقالت امرأة كأنها تتكلم عن رجل حي:

- صفرو أمامه كالمرآة.

وقالت أخرى :

- كالسبحة في كفه.

قيل في نزهة السطح إن البلدة ليس فيها أي عرس، ولكن عرسا طرأ على إثر فضيحة هروب فتاة مع شاب رفض أهلهما أن يزوجاهما. أقيم العرس في زمغيلة، حي صديقتي هنية فذهبنا معها، فطومة وأنا لرؤية العروس الهاربة. وجدناها في صدر غرفة مكتظة بالنساء في الطابق العلوي. كانت سمراء، جميلة أو كذلك خيل لي. وكان عدد المتفرجات يفوق عدد المدعوات.

ثاني عرس رأيته في البلدة هو عرس جارتنا أخت صديقتي للا آمنة. العجيب فيه أن العروس فقيرة وتزوجت ابن القائد. كان أبوها يسوق حافلة فاس. يخرج عند الفجر ويعود بعد العشاء ويبذر أجرته، رغم انتسابه لبيت الرسول، في الخمر. ومع أن القيادة كانت قد خرجت من أسرة العريس، إلا أنه كان يسمى ابن القائد.

أقيم العرس في الدار التي كانت دار القيادة بدرب عمر. وكان العجيب في الأمر أيضا أن العرس عرسان، لأن القائد زوج ابنيه معا

دفعة واحدة، وفتح باب داره، لأول مرة، للبلدة فبدأت وفود المتفرجات تمر أمام غرفتي العروسين الواقعتين في جناح واحد، ثم تعبر ممرا إلى قلب الدار حيث غرفة جليلة مترامية الأطراف ذات قبة ونوافذ مقوسة بزجاج عراقي ملون وزليج وزخرف، في صدرها العروسان على وجهيهما خماران من حرير أخضر. وقررت بيني وبين نفسي أن عروسنا أجمل. كانت النساء في أتم زينة، وعلى حواشي موضوعة على السجائد مباشرة جوقة نسوية تضرب على الطبلة والدف والتعاريج وتغني:

ليلي وهي ليلي
أللّه أليلي
سيادي جيبوها لي
أللّه أليلي
ذيك الشريفة العلوية
أللّه أليلي
الماف السواقي وأنا عطشان
أللّه أليلي
الخبز في الطبايق وانا جيعان
آللّه أليلي
سيادي جيبوها لي
أللّه أليلي.

وبعد ظهر يوم الجمعة جاء حربة صاحب الحلقة وخرجت الناس إليه في ساحة باب المقام، فبدأ يعد عدته والناس تقول :

ـ الحرب ! الحرب ! اعمل لنا الحرب أ حربا!

وهو لايرد. وقال رجل:

ـ الحرب يتركها للختام. لو بدأ بها لتفرقت الحلقة. إنه عندما

يعمل الحرب يدفع بقوة ويثير الغبار.

ثم أعلن حربا:

- سأبدأ بالحمام. نفيسة ذات الشعر الطويل الأسبط محاطة بدلاء الخشب في القاعة الوسطى.

وجلس وشرع بحركة ميمية يصب الماء على رأسه وينزل بالمشط على مهله من أم رأسه إلى الأرض، وبدأت طفلة تبكي على ظهر أختها فقالوا لها:

- أخرجي عنا أختك!

فخرجت المسكينة من الحلقة. وعصب حربا رأسه وقال:

- أما جارة نفيسة فقد دخلت إلى الغرفة الداخلية.

وسقى من حوض الماء الحار دلوا وهميا جره إلى ركن مظلم، وجلس وفك العصابة وصب على رأسه على عجل وهو يتلفت يمنة ويسرة ثم قال:

- جارة نفيسة...

قالوا:

- قرعاء.

الدار البيضاء

في ذاكرتي بقية صورة مفعمة بالحزن والبكاء على فراق صديقاتي، وبعدها مباشرة صورة بيتنا في شقة بعمارة في شارع السويس بالدار البيضاء ثم صورة أوضح لشقة أخرى في نفس الشارع بقينا فيها حتى جاء الاستقلال.

وقتها تصالحت أمي مع جدي، أذكر ذلك من حكيها المتكرر:

ـ جاءت فطومة وابنتها فطومة ودمية زوجة علال وحادة عمة أبيك والروبيو. بقوا خمسة أيام أو ستة أو ثمانية. وعندما أرادوا أن يذهبوا قالت لي حادة:

ـ تعالي معنا لنصالحك مع حميك.

قالوا له ذلك فقال:

ـ إذا أرادت أن تذهب برضى نفسها فلتذهب، أما أنا فلن أكرهها على ذلك. قالت يما:

ـ ماعلينا أيما، الآن وقد طلبوا منك ذلك اذهبي واتركي الجزاء للّه.

فقلت له:

ـ أعطني ثمن التذكرة.

فقال:

ـ ليس معي شيء وأنت تعرفين ذلك.

وأعطتني يما وذهبنا.

فقلت لأمي:

ـ لم تكوني عاقلة. من كلامك...

ـ كنت أطيع أمي، ذاك مايثيرني. كنت أطيع أمي والآن لا أحد يطيعني. كان عليها أن تقول لهم: «أ للا هم الذين ظلموها، هم الذين يجب أن يصالحوها.»

ـ بالضبط.

ـ كنت أخشى أمي قلت لك، متزوجة وأخافها. جاءني الزوج الأول ببطاقة سينما وقلت له: «حتى تأذن لي أمي.»

ـ لو كنت عاقلة لما ذهبت إليهم. استولوا على فراشك وجرجروك في المحاكم...

ـ كفى! جاءت تقلب علي المواجع. أغلقي عني هذا الموضوع. لايهمني... كنا بدون فلس، أمي هي التي كانت تعطيني ما أصرفه، حتى بوعزة اشترى من مصروفه ديكا روميا وقال لي: «اطبخيه لهم. طعام وجبة أو وجبتين.» هل كنت سأذهب معهم لولا خشية أمي؟ ما شأني بهم؟ انظري إلي الآن! هل أذهب إليهم أو أدخل دورهم؟

ـ الآن وجدتنا بجانبك.

ـ لا، لا، لا. فقط طاعتي لأمي... توقفت الحافلة في فيني ونزل الروبيو ليشتري طعاما فأعطيته ثمن حصتي فجاءني بكسرة فيها كباب والناس تتحاسب: «كم معك؟» و «كم معك أنت؟» و «كم صرفت؟» و «كم صرفت أنت؟» سفرتهم الأولى إلى الدار البيضاء. وصلنا وبدؤوا: «إيوا إلى أين ستذهبين؟» ، «إلى أين ستذهب؟»

قلت:

ـ شف، لن أذهب إلى أي مكان. سأعود إلى الدار البيضاء، الآن.

قالت دمية:

ـ تأتين معي.

ذهبت معها وجاء زوجها رحمه اللهُ باللحم وقطعه وشكه في السفافيد وخبزت هي. آل القايد حدو أخ زوجها، جيرانها. استدعوني وهي بينها وبينهم عداوة. قالت:

ـ لاتذهبي إليهم. أنت عندي وأنا لاأكلمهم.

وجاءت المرأة بنفسها، أخت القائد، فذهبت معها. وعندما

رجعت في المساء وجدت دمية ناقمة. وفي الصباح جاءت حادة، لعلها ذهبت إليها، لاأدري، جاءت بخالها.

قلت لأمي :

- جاء معها ؟ ماذا قال؟

- اصفحي عنا يا ابنتي! كنا مجانين.

- وأصبحوا عقلاء؟

- ... أخذني وبقيت عندهم يوما ثم ذهبت لحالي.

- دخلت بيتهم؟

- إييّه! وأين أذهب؟ بت ليلتي وفي الصباح رجعت في حالي إلى الدر البيضاء.

كنا نمشي من شقتنا في شارع السويس كل يوم مسافة طويلة إلى مدرسة حرة تسمى مدرسة المعارف، في بيت عادي وسط البيوت من طابقين وأربع غرف يسكن المدير إحداها. كانت من ذلك النوع الذي انبثق من القاعدة، كرد فعل على المحاولة الفرنسية الرامية إلى القضاء على اللغة العربية في المغرب بإحلال اللغة الفرنسية محلها في برامج التعليم الرسمي.

أسس تلك المدرسة مديرها السيد محمد الحريزي، رجل من نواحي الدار البيضاء وأخذ يدرس فيها هو وزوجته الأستاذة زبيدة وهي شابة من فاس، تلبس الجلباب والنقاب ولكنها تنزل النقاب في الصف. وكان يساعدهما شابان وجيهان من نواحي الدار البيضاء أيضا. وكانت الدروس تتركز في اللغة العربية وقواعدها ولاتفسح للفرنسية إلا ساعة في الأسبوع.

ذهبنا وأجروا لنا اختبارا في قراءة مصورة متداولة في مدارس لبنان. وطلب مني أن أقرأ نصا بعنوان: «الديك المؤذي» يبدأ مازلت

أذكر ب: « هل رأيت يا سعيد كيف يعيش هذا الديك وحده في قفص منفرد؛ لايخالطه أحد ولايشاركه طير في طعام أو شراب؟ إنه الديك المؤذي الذي كنت أقص عليك حكايته.» وهناك، في تلك المدرسة بتلك الدار أخذت مبادئ اللغة العربية من منابعها، عن أساتذة أحبوها واعتبروا غرس حبها فينا واجبا دينيا ووطنيا.

وبقينا نمشي في دار بيضاء ذاك الزمان، «الدار السوداء» كما كانت أمي تسميها، التي كانت تغلي كالمرجل وفي سمعنا صوت الرصاص وأمامنا منظر الدوريات والخوذ والقبعات والأعلام البغيضة ذات الثلاثة ألوان والشاحنات العسكرية والمدافع الرشاشة وجثث المخمورين المغاربة والخونة الذين يطيح بهم رصاص الفدائيين، وكفاحنا أن نصل إلى الصف ونأخذ حصتنا من لغتنا ونعض عليها بالنواجد. وبقينا كذلك نحمل هم الوطن رغم صغر سننا حتى أمسك الفرنسيون أبانا من جديد.

وأسأل أمي:

ـ كيف ذهبنا إلى الدار البيضاء؟ من ساعدنا؟ فتجيب:

ـ الوطنيون. عندما أكمل أبوك العامين وسبعة أشهر كتب يقول: «سأخرج من السجن في اليوم الفلاني.» فذهبت بكن إلى بيت مولاي ادريس البوعناني في القنيطرة، وأخذنا في سيارته إلى العادر فوجدنا المعطي في باب السجن. وقبل أن يخرج أبوك قال له النصراني:

ـ عليك أن تذهب إلى بني ملال أولا لتوقع على ورقة هناك.

فذهب مع أخيه ورجعنا نحن إلى صفرو ثم لحق بنا وبقي ثلاثة أيام وقال:

ـ سأذهب إلى الدار البيضاء. لقد وجد لي الوطنيون عملا هناك.

كان لي دُملج مسوس فأخذته إلى إبراهيم البقال، ذكره اللّه بالخير، كان

يهوديا ولكن أفعاله كانت أفعال مسلمين. قلت له:

- إرهن لي هذا مقابل المبلغ الفلاني.

فقال:

- أللا وجه سيدي السرغيني لايحتاج إلى وثيقة.

وأعطاني المبلغ فجئت به أباك فذهب. وبعد ذلك كتب يقول: «هاتوا الفراش وتعالوا.» فاستأجرنا شاحنة وذهبنا. وجدناه قد اكترى شقة في شارع السويس والصباغون مايزالون فيها.

كان الوطنيون قد وجدوا له عملا في دار البراد بطريق مديونة. إيوا بدأ العمل هناك في الإدارة مع السي المصطفى. عندما جاء النصاري بالوطنيين من كل أرجاء المغرب ووضعوهم في سجون واحدة، هيؤوا لهم من حيث لايدرون فرصة اللقاء الذي كان يستحيل دون ذلك. وكان السي المصطفى وطنيا جزائريا من قسطنطينة نفاه الفرنسيون إلى الدار البيضاء.

وبواسطة العلاقات التي هيأها السجن لأبيك، بدأ يحصل على السلاح ويوصله إلى حسن العربي وهو تاجر معروف في بني ملال، أصله من الساقية الحمراء. كانوا يذهبون في سيارتين، واحدة تحمل السلاح والأخرى تسبقها، فإن وجدت الدرك في الطريق رجعت. مرة وجدوا الدرك فدخلوا في شاطئ وتوعرت لهم العجلات في الرمل فبدؤوا يزيحونه بأيديهم. وقتها فقد أبوك الخاتم الذي جاءني المعطي عندما سجن أبوك مرة أخرى يقول: «أين خاتمه؟ لم أره في أصبعه في السجن.»

ورآهم أحد عمال حسن العربي فوشى بهم. رجع أبوك وجاء الخبر: «حسن العربي فعل كذا وكذا وقد جاؤوا به إلى مركز الشرطة في الدار البيضاء.» فبدأ ينام بملابسه. كنت أقول له:

- ماذا تنوي فيه؟

فيقول:

- رجل ولكن التعذيب ... التعذيب !!

عذبوه ثمانية أيام. كم أمسكوا من أشخاص؟ أمسكوا ثلاثين. إيوا عذبوهم حتى أقروا لهم به. وجاء بعد ظهر ذات يوم وقال:

- ينتابني إحساس لاينبئ بخير. سأحاول أن أنام. أيقظيني في الثانية.

قلت:

- تغذى أولا.

قال:

- لا

الحاصل، استيقظ وخرج، وعندما وصل إلى باب الدار نكص. إيه، قبل ذلك تمددتُ أيضا فرأيتني في بحر مترامي الأطراف أسبح فيه يالله ! يالله! يالله! حتى وصلت إلى البر. وعندما مددت يدي إلى الشاطئ جاءني نداء من تحت الماء، يقول لي:«أخرجي دعاء لك ودعاء لابن يوسف» فغطست كما يفعل العوامون وبدأت أقول: «يارب سلك أمورنا وأمور سيدي محمد بن يوسف! يارب سلك...» فخرجت يد باردة من الماء وخنقتني. ورفعت رأسي فوجدت الثانية في ساعة الحائط فأيقظته وخرج. وعندما وصل إلى باب الدار توقف ورجع. أطل عليكن وقبلكن في نومكن وقال لي:

- كوني امرأة.

قلت:

- إذن انتهى كل شيء.

خرج وبدأت أجمع الملابس المتسخة لأغسلها فدق جرس الباب

وفتحت فوجدت رجلا قال لي:

- اجمعي كل ما في البيت من أوراق وأحريقها.

قلت:

- أمسكوه؟

وجمعت كل ما في البيت من أوراق حتى عقد الزواج، وذهبت إلى للا الطام وفاطمة فجاءتا معي وصعدنا إلى السطح. أحرقنا الأوراق وغسلنا السطح وجلسنا، بعد ذلك جاء السي المصطفى وسألته:

- ماذا حدث؟

فقال:

- كنا في المكتب وجاءت ثلاث سيارات جيب، الأولى فيها حسن العريبي مغطى ببطانية عسكرية والأخريان معبأتان بشرطة مدججة بالسلاح. قرعوا الجرس وفتحت فقال لي أحدهم:

- هل بوزيد موجود؟

تظاهرت بعدم الفهم. قلت:

آ...؟

قال:

- هل بوزيد هنا؟

فرد السي أحمد من الداخل:

- موجود، موجود.

ودخل النصراني ومد له سترته من فوق الشماعة، فلبسها وخرج معه وتعقبتهم إلى باب المصنع. كان الآخرون قد سبقوا إلى الرجل المغطى ورفعوا البطانية عن وجهه ليتعرف على السي أحمد. الحاصل رأيته، حسن العريبي.

وبدأت مع للا الطام وفاطمة نطوف على مراكز الشرطة. بدأت

أتركهما في الخارج وأدخل فيقولون لي:

- ماذا تريدين؟

أقول:

- زوجي.

- مابه؟

- خرج ولم يعد.

- يقامر؟

- لا.

- يشرب الخمر؟

- لا.

- وطني؟

- لاأعرف.

- اذهبي إلى مركز الشرطة الفلاني

إلى أن طفنا على حوالي ستة أوسبعة مراكز ثم وقعنا على رجل أسود، ضخم وأسود كأنه زير العاشق ف النبي، مسلم.

- صباح الخير أسيدي.

- صباح الخير أللا.

- زوجي خرج ولم يعد ولدي بنات صغيرات و (كذا وكذا...).

فقال:

- أللا إن كنت تعرفين أنه وطني فلا داعي للّف في مراكز الشرطة. إنهم يذهبون بالوطنيين إلى المركز الفلاني. إذهبي إلى هناك ولكن لاتذكريني. ماذا تقولين إن سألوك عمن أرشدك؟

- أقول: «طفت بالمراكز كلها إلى أن وصلت إلى هنا.»

وبدأ يدلني على الطريق فقلت:

- أسيدي، لست من هنا. تعالي أللا الطام. جاءت ودلها فذهبنا.

تركتهما ودخلت :

ـ ماذا تريدين؟

شرحت ما أريده فقالوا :

ـ هل هو وطني؟

ـ لا أعرف، لقد طفت بكل المراكز ولم يبق إلى هذا فجئته. إنني أبحث منذ ثلاثة أيام.

ـ ما اسمه؟

ـ فلان.

قالوا :

ـ سجناه ولكنه لايوجد هنا. يوجد في السجن العسكري.

فذهبنا إلى السجن العسكري. وجدنا النساء جماعات، جماعات. من تبكي ومن تحكي. وذهبت كل واحدة منا إلى جماعة وسألت:

ـ أللا ماذا تفعلن؟ لقد عثرنا على سجيننا اليوم فقط ولانعرف ماذا نفعل.

ـ هل أعطوك رقمه؟

ـ لا.

ـ اشتري أكلا وادفعيه على الله.

ذهبت واشتريت الخبز والجبن والسجائر وصررت ذلك في مئزري ووضعته على الرصيف مع أكل الناس. وجاء النصراني وبدأ ينظر ثم أشار إلى الصرة بمدفعه الرشاش وقال:

ـ لمن هذه؟

قلت:

ـ لي:

قال:

ـ ما اسم صاحبها؟

ـ فلان.

ـ أين الرقم؟

ـ ليس عندي رقم. ذهبت إلى مركز الشرطة وقيل لي إنه هنا. إيوا أدخلوها وأخرجوا لي المئزر فعرفت أنه هناك. الحاصل بدأت أحمل له الأكل. وذات يوم منعوه عليه، فبدأت أذهب من السابعة صباحا إلى السابعة مساء وأعود به. الحاصل ذات يوم خرج سجين من ذوي الجنح الذين كانوا يشغلونهم في ذلك السجن حتى يسرقوا أكل الوطنيين، ولكنهم كانوا يخرجون لنا الأخبار. خرج وقال لنا:

ـ الجيب التي ستخرج الآن فيها ثلاثة وطنيين، اثنان ميتان وواحد بين الحياة والموت.

قلنا:

ـ من هم؟

قال:

ـ لا أعرف، مغطون.

وخرجت سيارة جيب فيها ثلاثة نصارى فذهبت إليهم وقلت لهم:

ـ بارك اللّه فيك، إنهم يردون لي الأكل.

ـ ما اسم السجين؟

ـ السي أحمد بوزيد.

قال أحدهم:

ـ لاتقولي: «السي».

وقال آخر:

ـ مات وأرسلناه إلى المستشفى ليدفن.

ـ بأي حق تدفنونه وأنا هنا كل يوم؟

قال الآخر:

ـ لم ندفنه. اذهبي الآن وارجعي في الثالثة.

جئت ولم أقل لكن شيئا، وفي الثالثة رجعت ومعي للا الطاء وفاطمة، قلت لهما:

ـ ابقيا هنا، إذا انقضى اليوم ولم أخرج اعرفا أنهم أمسكوني.

إيوا فتحوا الباب ودخلت ومعي فاتحة. وجدت الأكل مبعثرا في ساحة كبيرة والمجرمون يفتشونه. كانوا يعطونه لهم ليفتشوه لأنهم جائعون، حتى يعبثوا به ويأكلوا منه. تكون الدجاجة صحيحة فيقسمها المجرم ليرى إن كان بداخلها شيء. صعد بنا النصراني في سلم ولففنا ثلاث لفات ثم دخل مكتبا ونادى شخصا وقال له بالفرنسية:

ـ أحضر فلانا.

مكتبه هنا والزنزانة أمامه هناك وحيطان ذلك المكتب مزررة بالمفاتيح. نسيت ينساك الهم ولاتحضرينه. عندما قالوا لي «مات» ذهبت إلى بيت السي المصطفى وقلت له ذلك فقال:

ـ نسأل اللّه ألا يموت بين أيديهم. هاتي لي دفتر الحالة المدنية. إننا نريد أن ننقل البنات إلى مدرسة أخرى.

سألني النصراني في ذلك المكتب:

ـ هل أنت زوجته؟

كررها ثلاث مرات وقلت:

ـ نعم.

فقام ولف حول الدرابزين وفتح الزنزانة المواجهة وجاء برجل رأسه ملفوفة في الضمادات، بحيث لايظهر منه إلا عيناه وأنفه وفمه، وجفناه الأسفلان مقلوبان يظهر باطنهما. كانوا يعلقونه من قدميه ورأسه في المرحاض.

دخل الرجل وانحنى على فاتحة وقبلها فقلت:

ـ السي أحمد؟

قال:

- نعم. ترجلي! إياك أن تبكي! إنهم لايحبون شيئا قدر مايحبون مثل هذه المواقف.

وبدأوا يكلمونه فالتفت إلي وقال:

- تعرفين ما قاله هؤلاء؟

قلت:

- لا.

قال:

- يقولون إنك اشتكيت للبكاي ووكلت محاميا.

قلت:

- لم أشتك لأحد ولم أوكل أحدا.

وبدأ النصراني يكلمني بالعربية فانخلعت من مكاني. كان يتكلم العربية كأنه مسلم. قال:

- لاتقولي إنك لم تذهبي. ها... فاطمة بنت السرغيني من صفرو، تاقصبت ، زقاق رحمة الخنكية رقم 7. تقيم حاليا في شارع السويس رقم كذا، حتى نمرة الزنزانة مذكورة. المحامي جاء وقال: زوجته هي التي وكلتني.

قلت:

- إيوا أنا أقول لم أوكل أحدا.

قال لأبيك:

- كلمها.

فقال لي:

- إن كنت قد اشتكيت فلا تخافي. إن المحامي هو الذي جاء

بي من المستشفى وهو الذي طالب بأن تريني.
قلت:
- لم أشتك.
فقال له النصراني:
- خذها إلى تلك الغرفة وكلمها.
أخذني وقال:
- إن كنت قد اشتكيت قوليها!
قلت:
- لم أشتك.
فرجع إلى النصراني وقال له:
- إنها تنكر.
- مستحيل.
- شُف. أطلق المنادي في الدار البيضاء ليقول: «من وكل محاميا على بوزيد؟» هي تقول إنها لم توكله.
- كان مايزال مندفعا. كان رأسه مايزال حاميا. لم يكن قد عذب بعد على يد البوليس المغربي.

قلت ذلك لأمي وأنا أفكر في اليوم الذي عدت فيه من لندن وجاء يستقبلي في المطار. يومها كلمني شرطي بضراوة ورددت عليه بمثلها. ألم أكن عائدة من بلاد الديموقراطية؟ فرأيته، والدي، ينكص بجسده الذاوي ويتلفت مرعوبا ويبسط يده أمامه ويحركها في اضطراب، يعني: «اسكتي! اسكتي.» فلفتني برودة شملت البلاد من حولي إذ أدركت في تلك اللحظة هول ماتعرض له على يد البوليس المغربي عندما سجن بعد الاستقلال بتهمة التآمر على النظام.

وأكملت أمي:

- قال النصراني: «قل لها أن تعود في الثالثة.»

فقلت:

- إنهم لايدخلون لي الأكل.

قال:

- هاتيه مرتين في الأسبوع وكثريه.

إيوا ذهبوا به وخرج النصارى ولم يبق إلا واحد، خلع سترته وشمر كمي قميصه وبدأ يتمطى ويتمدد، يرهبني، ثم قال لي:

- من يصرف عليك وعلى بناتك؟

قلت:

- أبيع إرثي وأصرف منه.

قال:

- هل يصرف عليك الوطنيون؟

قلت:

- مامعنى وطنيين؟ أنا لاأعرف معنى هذه الكلمة ولاأعرف حتى لماذا يوجد زوجي هنا.

- تعرفين أصحابه في بني ملال؟

قلت:

- لسنا مثلكم. نحن لانجلس إلى المائدة مع الرجال ولانعرف أصحاب أزواجنا.

خرجت ووجدت النساء ينتظرن في الباب فأقبلن علي:

- هل مات أللا؟

قلت:

- لا.

وذهبت إلى دار السي المصطفى فوجدت زوجته تنفخ بالكير

على مجمرة عليها غذاؤها، وهويذرع الغرفة ويداه خلف ظهره فحكيت له ماوقع فقال لي:

- الحالة المدنية التي جئتني بها، أخذنا منها المعلومات وأرسلنا امرأة مغايرة لك، طويلة وموشومة لتقدم شكوى وتوكل محاميا. فعلنا ذلك ليعلموا أنهم لم يمسكوا الجميع.

وذات يوم وضعت الأكل وجاء الحارس فقلت له :

- ألا يدخل أكلي؟ لقد كلمت المدير وقال إنه سيدخل.

فقال:

- لن يدخل مهما تكلمين من أحد.

وجاء آخر فضربني بمؤخرة مدفعه الرشاش أسفل ظهري وأنا حامل، وجاء آخر، مغربي، وقال:

- بوزيد؟

قلت :

- نعم.

قال :

- انتظري.

ودخل وعاد فهرولت إليه امرأتان وهرولت في إثرهما. قالت له إحداهما :

- ما الخبر ياسيدي؟

قال:

- ماذا أقول لك أللا؟ إن أخاك هو الذي وشى به طمعا.

فبدأت أخت السجين تلطم وجهها وتقول:

- أميمتي! ياخيي! يامن كنت تطعم الصهر...

قالت الزوجة:

- أخي لايفعلها.

فقال:

- يوم الجمعة الماضي طبختم الكسكس بالبصل والزبيب أولا ؟

قالت أخت السجين:

- إيّه.

قال :

- تلك الليلة عرف أخ هذه حقيقة الضيوف وأخبر النصارى.

وذهبت المرأتان فقلت له:

- وماذا تقول لي أنا ؟

قال:

- إنهم يضربونه على صدره وبطنه في ملابسه الداخلية منذ شهر ونصف. وعندما يسيل دمه يقلبونه بخشبة فيصير رأسه تحت ويضربونه على ظهره وهو ينكر. قالوا له: «وهذا الذي أقر بك؟» قال: «عدوي منذ أيام المدرسة. رماني بالباطل.» والآن إن أعانه اللّه وثبت في كلامه سيطلقونه بعد أسبوع، غدا انتظريني هنا وسأدخل أكلك.

قلت :

- ماسمك وأين تسكن؟

قال:

- الحسين وأسكن في طريق أولاد زيان في الدار الفلانية. فذهبت إلى السي المصطفى وحكيت له ذلك فقال:

- هل أعطاك اسمه وعنوانه؟

قلت :

- نعم.

وذكرتهما له، فذهبوا إليه في تلك الليلة وأعطوه ماكتب اللّه وقالوا له:

- اعطه لمن يضربونه ليخففوا عنه. هل يأخذون الرشوة؟

قال:

- إن وجدوها أخذوها.

- كم عددهم؟

قال:

- اثنان.

كانوا يضربونهم. واللّه، عندما أدخلوني رأيت واحدا في معطف أبيض كمعاطف الممرضين ملطخ بالدم كأنه جزار.

كان ثلاثتنا في ذهاب وإياب إلى المدرسة، نعيمة أيضا التحقت بنا، وبذلك تخففت أمي منها وبدأت تذهب إلى السجن يوميا وتعود دون أن تثقلها إلا القفة وبطنها الذي كان يزداد نموا شهرا بعد شهر.

كنا نرافقها من حين لحين في أيام العطل، أذكر باب سجن غبيلة، أمامه سجناء الجنح في بزة من قماش ضار وغامق كأنهم فصلوه من البطانيات العسكرية. كان السجناء شديدو السمرة، سود الشعر وكانوا يرصون القفف على لوح يحمله اثنان. وأذكر شجارا بين أمي وحارس حول قالب سكر ولم يصل إلى والدي وقاعة الزيارة المعتمة الطويلة، الضيقة، المفصولة بسياجين يتحدث عبرهما الزوار مع السجناء، ويمشي بينهما حارس في يده مفاتيح سوداء كبيرة.

وأذكر باب سجن آخر في منطقة معزولة وسط المصانع، جداره يمتزج في ذهني بجدار برلين، عال، سميك، في حافته أسلاك شائكة، وحارس أشقر كرس لدى الشبه بين الجدارين وأقنعني، في تلك الخلفية، أنه ألماني من جيوش هتلر. ولا أعرف لماذا يرتبط وجه ذلك «الألماني» عندي بصورة والدي، وفي رأسه جرح ينزف ويسيل دمه على وجهه وهو بين الحياة والموت في سيارة جيب، ولا لماذا يرتبط أيضا بالموت يلفظ في كل النبرات: «مات.»، «مات؟»، «مات!»

وذات ليلة استيقظت على هرج. وجدت باب غرفة أمي مغلقا وجدتي تدخلها بإناء فيه ماء ساخن وخالي الأكبر في الممر يترقب ثم امرأة لا أعرفها تفتح الباب وتخرج، مغربية، كهلة، شعرها مقصوص ولباسها أوروبي. قال لها:

ـ ما الخبر؟

فقالت:

ـ بنت.

ودخل خالي وأدخلني. أطللت على السرير الصغير الذي اشترته أمي فوجدت طفلة مقمطة، مغمضة العينين أبرز ما فيها شعر فاحم وناعم. ولعلني لم أنم ليلتها. وفي اليوم التالي رجعنا من المدرسة نحمل محفظاتنا ونمشي الهوينى كالعادة، وبغتة انخلعت من مكاني قائلة:

ـ أختي!

ـ ماذا؟

ـ الطفلة؟

وبدأنا نجري في الشوارع. ولم نتوقف إلا على حافة السرير الصغير. انكببنا عليه نتأمل أختنا الصغيرة ونضع أصابعنا في يدها لتشد عليها، أختنا التي جاءت مع الاستقلال وعودة ابن يوسف وخروج أبينا من السجن. وما كاد أبونا يخرج من السجن حتى عين باشا في بني ملال، ولعله خرج بالمنصب.

قيل:

ـ ماذا نسمي الطفلة؟

قلت:

ـ سعاد.

قالوا:

- والسلام. قدمها قدم سعد. جاءت باستقلال بلادها وحرية أبيها وبالمنصب. وعندما بدأ يقال لأمي:

- من سماها؟

وتجيب:

- ليلى. ليلى أللا.

سألتها:

- وأنا من سماني؟

قالت:

- أبوك. سماك على ليلى مراد. أمه أرادت «فاطمة» وأنا أردت «فضيلة» لأنك ولدت ليلة القدر. كنت أعد بريوات العيد وأنا صائمة، لم أرض أن أفطر رغم أن الماء كان قد بدأ ينزل مني. قلت: «لا أفطر حتى ينزل الجنين.» وكانت للا خديجة القابلة رحمها الله قد بدأت تبيت معي. ولدت ليلة القدر!

سألت أمي:

- ما حكاية الجرح في رأس أبي؟

كنت أعرف أن الفرنسيين أصابوه بجرح في رأسه، رأيت أثره يوما وأنا واقفة خلفه داخل السيارة، متشعبا ونافرا فقلت في نفسي: «اللّه قادر بهذا وحده أن يغفر لك يا أبي.»

قالت:

- الجرح أصابه في السجن العسكري. كنا نسكن في العمارة الموجودة فوق قيصرية المنجرة. وكان الوطنيون قد حذروا التجار من بيع البضائع الفرنسية ومن ضمنها الأقمشة، ولكن تاجرا في تلك القيصرية ظل يبيعها فوضع الوطنيون في باب دكانه قنبلة تحت كرسي

من القش وأطلقوا عليه الرصاص. وجاءت الشرطة فأمرت التجار بالخروج وترك دكاكينهم مفتوحة. وعندما همت بإخراج الجثة انفجرت فيها القنبلة.

كان أبوك مجتمعا برفاقه في كراج قريب وأدركه وقت منع التجول فخرج يجري. وصفرت له دورية من جنود اللفيف فلم يتوقف فتعقبوه. انعرج في الشارع الفرعي ودخل عمارتنا وصفق بابها فانغلق. ووصلوا إلى المنعطف ووجدوا باب عمارتنا مغلقا فتعدوه ودخلوا العمارة الموالية. طرقوا باب إحدى الشقق وأمروا صاحبها بالوقوف. زوجته هي التي حكت لي ذلك في السطح. وقف الرجل ووضع الجندي يده على صدره ليرى إن كان قلبه يخفق بسرعة وسأله:

- متى دخلت؟

قال:

- في السادسة.

إيوا بدأ تفتيش البيوت القريبة بحثا عمن قتل التاجر ووضع القنبلة. كان لدى أبيك سلاح وصور سيدي محمد بن يوسف. الحاصل أخرج السلاح ووضعه في خصري وشد عليه منديلا كبيرا ودخلت في الفراش. ودق الجرس وفتح فدخلوا. وجدوا سجادا ملفوفا ومسندا إلى ركن المدخل، فأسقطه أحدهم بعقب مدفعه الرشاش وداسه ليرى إن كان بداخله أحد ثم دخلوا وأناروا الكهرباء فرأيت صور محمد بن يوسف مبعثرة على الأرض. كانت مع السلاح وسقطت عندما أخرجه من الدولاب. وقتها أجهضت التوأمين الذكرين. صور السلطان على البلاط ولم يروها. ركلوا المطارف وخرجوا.

بعد ذلك أمسكوا جماعة من الفدائيين في الرباط وجاؤوا بهم إلى

الدار البيضاء فهدأت الرباط فقالوا: «زدوهم تعذيبا! إنهم هم الذين كانوا وراء كل عمليات الرباط.» فجاء أبوك وقال لي:

- هل تعرفين ما عليك عمله؟ إذهبي إلى السي عبد القادر بن يوسف وقولي له أن يتحركوا قليلا ليخففوا عن هؤلاء العذاب.

وبدأ يسمي لي العشرة فقلت :

- لن أتذكر. أكتب لي الأسماء في ورقة.

قال:

- إنهم يفتشون.

الحاصل كتبها وأخفيتها في ثيابي وسلك اللّه ووصلت. وجدت الرجل في البيت فأعطيت الورقة لزوجته وأعطتها له وقرأها وقال:

- عودي إليه. قولي له ليس لدينا سلاح. قولي له أن يرسلوا لنا السلاح وسنتحرك.

ركبت الحافلة ورجعت وذهبت مباشرة إلى دار البراد. ناداه الحارس فخرج وذهب معي إلى البيت. أعطاني المسدسات التي كانت في الدولاب، لفها حولي كما فعل أول مرة وقال:

- إن أمسكوك ماذا تقولين؟

- أقول اعترض سبيلي رجل في محطة الحافلات وهددني بمسدس وأمرني أن أحملها ليتسلمها مني في الرباط.

ذهبت إلى محطة الحافلات ولم أجد مكانا واحدا إلى الرباط فركبت القطار. ووصلت فخرجت من باب المحطة الخلفي المخصص للمغاربة. الباب الرئيسي كان ممنوعا على المغاربة. وعندما صعدت إلى الشارع وجدت جماعة من جنود اللفيف قادمة فقرفصت وبدأت أتشهد ولكنهم دخلوا مطعما ليأكلوا، يأكلون الحنظل إن شاء اللّه.

ووصلت إلى المدينة فوجدت سوق الزرابي مطوقا بالجنود فانعرجت في زقاق ودلفت في باب بيت بقيت وراءه حتى انفضوا فخرجت وواصلت المسير متوغلة في أزقة المدينة.

بعد ذلك أمسكوا أباك ووضعوه في السجن العسكري، وبدأ النصراني يدخل طعام الجميع ويترك طعامي، ثم أشرت إلى قفتي وقلت:

ـ وهذه؟

فقال:

ـ تلك، صاحبها خنزير.

بعد ذلك بدأوا يخرجون لي ملابسه الداخلية مغموسة في الدم وعليها نتف من لحمه. كان اثنان يضربانه على بطنه وصدره، واحد عن يمينه وواحد عن يساره. رفض أن يخلع ملابسه الداخلية فجاءني السي المصطفى بدزينة منها. هذه هي قصة الجرح. أفلت فيه من الموت. عذبوه. فرنسا الحرة، أحدثت له ذلك الجرح في رأسه لأنه كان يطالب بحرية بلاده.

قلت:

ـ كلهم كذلك، الغرب كله كذلك. يرفعون شعارات المبادئ طالما كانت تخدم مصالح ذواتهم الغربية ثم يخرقونها بمجرد ما تمس بها.

ـ النصارى؟

ـ سيان. السود في أمريكا يسمونهم «البيض». النصارى، الغرب، البيض شيء واحد. أليست إنجلترا التي قادت مؤامرة الحروب الصليبية على فلسطين في القرون الوسطى هي إنجلترا التي نسجت

المؤامرة على فلسطين في القرن العشرين؟ نفس الأشخاص ونفس الدوافع، اللغة هي التي تتغير.

- إنهم عدونا وعدو نبينا.

- ذاك مايفعله الأمريكيون الآن بالفلسطينيين بأيدي إسرائيل. عادة متأصلة. يسطون على بلداننا ويضربوننا. وبقدر ما يضربون بقدر ماتزداد كراهيتهم لنا لأننا نواجههم بفظاعة أفعالهم.

- بعد ذلك نقلوه إلى غبيلة. وعندما رجع ابن يوسف بدأوا يسمحون لنا بالدخول بدون تسريح. جئت يوما فقال لي الحارس:

- إنه يريد الحريرة.

فرجعت إلى البيت وطبختها ورجعت بها. وضعت سطل الصاج الأبيض على الأرض وقال لي الحارس:

- أين نصيبي؟

قلت:

- أنت الأول.

أخذ منها وأدخلني إلى غرفة وجاء به وتركنا فجلسنا على كرسيين وقال:

- ماهي أوصاف الشخص الذي كان يعطيك التساريح؟

- شاب مغربي مجذور الوجه.

- غدا اذهبي إليه. قولي له إن السجناء أرسلوني إليك. يسألونك لماذا أطلقوا البعض ولم يطلقوا الباقي.

وفي الصباح ذهبت من شارع السويس حتى المدينة على قدمي وبطني أمامي. وجدت البوابة الحديدية ماتزال مغلقة فبقيت أنتظر حتى فتحوا. وجاء الرجل:

- ماذا تفعلين هنا؟ لقد ألغي التسريح.

قلت :

- أعرف. اللّه يخلي وجهك! أريد أن أكلمك. فتح باب المكتب ثم فتح النافذة وقلت:

- أرسلني السجناء إليك يابني. أعطيتهم أوصافك فقالوا: «ذاك منا.» هل تعرف بماذا أشبهك؟ بالنحلة. تلسع وتعطي العسل. هناك في مهنتكم هذه من هم كالزنابير. يلسعون ولايعطون شيئا.

قال:

- إيه! مذ خلقني اللّه لم أسمع مثل هذا الكلام. ادخلي ! ادخلي! دخلت وقلت بمجرد ماجلست:

- يقولون لك: «لماذا أخرجوا البعض ولم يخرجوا البعض الآخر؟ ما السبب؟».

قال:

- بسبب لسانك العذب أقول لك. قولي لهم إنهم اجتمعوا ونظروا في الملفات وقدروا أحكامها فقرروا أن يفرجوا عن ذوي الأحكام الخفيفة. قولي لهم ألا يقلقوا. لقد رجع ابن يوسف وسيفرج عنهم جميعا.

عندما عاد ابن يوسف ناشد الوطنيين عدم الانتقام ولكن رجلا كان قد أقسم أن يقتل مقدم حيه فقتله وأمسكوه. قال لي ذلك الشاب:

- قولي لهم إن ذلك الرجل معهم في السجن وإنهم سيعدمونه بعد يومين.

ذهبت وقلت له ذلك فقال:

- جاؤوا به فعلا ووصلنا خبره. غدا هاتي جلبابا نسويا ونقابا. وجئت في الغد وأدخلونا وعدونا وكتبوا عددنا على السبورة فجاء

سجينان من ذوي الجنح وضرب أحدهما الآخر بسطل فقال له:

- هل جننت؟

وبدآ يتضاربان ويتسابان فجاء الحراس:

- ماهذا؟

قال أحد السجينين:

- هو الذي ضربني بالسطل. ألم تره؟ كنت مارا في حالي فرفع السطل وضربني به.

كنت في الخلف ورأيت رجلا يمسح العدد الذي كتبه النصراني على السبورة ويعيد كتابته. أصحاب الجنح في ذلك السجن ناضلوا أيضا. الحق يقال. ناضلوا. ودخلنا. نسيت، جئت أيضا بنظارة سوداء لأن الرجل كان قد اشتبك مع خصمه قبل أن يقتله فترك له ندوبا بين عينيه. الحاصل خرج الرجل معنا لأنهم كانوا قد فتحوا المنافذ بين السياجَيْن وتركونا بدون حراس. الحاصل، رجعت ببدلة السجن وحشوت بها وسادة جلوس وبدأت كلما رأيت أحدا يجلس عليها أتأملها وأتعجب.

الحاصل، رجع ابن يوسف ووضعت سعاد وخرج من السجن وسلمه السلطان ظهير التعيين. يوم عقيقة سعاد نحرنا خروفا لأول مرة. لم نكن ننحر لا في عيد ولا في موسم. يومها قال زوج فاطمة رحمه اللّه:

- لانتغذى حتى نسمع خبر تعيين السي أحمد في الإذاعة.

إيوا نحن لدينا عقيقة سعاد وهو تستقبله بني ملال بالتمر والحليب. استقبلوه بالرقص والتطبيل والورود والأعلام والزغاريد. قالت رابحة إنها رفعت رأسها ووجدت قدورا طينية سوداء مقلوبة على

العيدان في السطوح. قالت: «عرفت أنه فعْل آل الباشا القديم» فأشرت إليها وقلت: « أنظروا! أنظروا!» فحمل الناس الحجارة وبدأوا يرمونها بها فتكسرت.

قلت:

- متى يخلص اللّه المغرب من السحر؟

- وقتها التقى نصراني القصيبة أباك وقال له: «إني لا ألومك وكذلك أنت لاتلمني. لقد كنت تدافع عن مصلحة بلادك وكنت أدافع عن مصلحة بلادي.»

فقلت ساخرة :

- ياله من كلام مؤثر! دفاع عن الحق في الاستعمار! هذا هو المنطق الذي تستعمله الولايات المتحدة اليوم لتبرير تدخلاتها في العالم بأسره «المصلحة الخاصة»، «طريقة العيش الأمريكية». هؤلاء الناس لايخجلون من بناء رفاهيتهم على بؤس الآخرين ولن تعوزهم التبريرات. ألا ترين كيف يسيطرون على ثروات العرب ويريقون الدماء من أجل ذلك؟

- كيف كان سيكون موقفهم لو طالبنا بمصلحتنا في مناطقهم؟ لو قلنا مثلا: «يجب أن نضمن الوصول إلى قمحكم؟ مصلحة خاصة؟ آ...؟ اللهم أحق الحق بقدرتك ياقوي ياعزيز!

عندما دخل أبوك بني ملال طلب القايد حدو ابن أخته الروبيو وقال له:

- اذهب إلى السي أحمد وقل له إن فلانا يود أن يجازيك على كفاحك ولا يجد هدية أكبر من ابنته ومعها سيارة وبيت.

فقال له أبوك:

- وتلك ألم تكافح أيضا ؟ هل يكون هذا هو جزاؤها ؟

رجع الروبيو بذلك الكلام فقال له:

- قل له: «اترك تلك للمطبخ وقدم ابنتي للباشوات والقواد. »

فقال أبوك:

- ارجع إليه وقل له: «سأترك تلك للمطبخ فعلا ولكن عندي من أقدم للباشوات والقواد. عندي ليلى وفاتحة.

وتهدج صوت أمي ومسحت بسبابتها أسفل عينها اليمنى بيد مرتعشة ثم أكملت:

- سمعتها بني ملال وغنت فيها الأغاني. إيوا رحلنا وجاءني الروبيو ولن يأتي حتى ينتهي الأجل، إنه الآن في دار اللّه. دخل علي يحمل حجلتين فقلت:

- ماهذا ؟

قال:

- ولد فلان كان في الصيد وجاءكم بهاتين.

فأخذتهما منه ووضعتهما في الثلاجة. عميد شرطة بني ملال الذي قال لي في باب السجن: «زوجك كلب لاقيمة له» وأتى به وقال له: «ما الذي فعلته لك فرنسا ؟ » الحاصل خرج الروبيو ثم عاد يقول:

- فطومة! أعطيني فوطة، لقد غسل يديه في حنفية الحديقة وأرسلني لأحضر له الفوطة.

ذهبت إلى غرفة النوم وقبل أن أدخلها رأيته من الممر المعتم، رأيته في باب الشرفة يضع قنبلة ويغطيها بالأوراق فرجعت وقلت للروبيو:

- أوصل الرجل إلى سيارته وعد بسرعة. وعاد فقلت له:

- إذهب إلى المكتب (المكتب على بعد خطوات)، وقل للسي

أحمد أن يأتي فورا ، إجر!

فذهب يجري وبقيت أنا في نهاية الحديقة بعيدا عن الدار. وجاء فأخبرته فذهب إلى المكان وأزاح الأوراق وأخرج القنبلة. قلت له:

- لقد جاء بحجلتين.

قال:

- هاتيهما!

وجاء بكلب، أعزك الله، وأعطاهما له فأكلهما ومات على الفور. وأحيانا اللّه حتى رأينا ذلك العميد يموت ميتة الكلاب وبني ملال ترفض أن تشيعه.

الرباط

سكنا في بني ملال بيت الحاكم الفرنسي في مشارف المدينة. كانت له شرفات فرنسية تظللها عرائش مزهرة ومرجتان كبيرتان وأزهار ومياه جارية. وكان البيت في حالة موسم، أهل أبي وأهل أمي وزوار من الدار البيضاء والرباط وطبخ بالليل والنهار.

ووصل موسم المدرسة فذهبت بنا أمي إلى بيت الحاج عثمان جوريو، مدير مدارس محمد الخامس ليسجلنا بتوصية من أبي في مدرسة امحمد جسوس لأنها تدرس العربية والفرنسية على السواء.

ودخلنا المدرسة وقسمها الداخلي. كان أساتذة الفرنسية جزائريين وأساتذة العربية رباطيين أصليين. وكان في القسم الداخلي بنات مزارعين وتجار سوسيين يعيشون في فرنسا. مرة التحقت بنا بنات مدير سيرك مغربي مدة جولة السيرك في المغرب فكن يتسلقن الأشجار ويقمن بألعاب بهلوانية مدهشة. كانت مدرسة مختلطة، أغلب تلامذتها رباطيين والداخليون من جهات مختلفة.

من أول العام ظهر ميلي إلى العربية وتفوقي فيها. ولا أعرف أيهما نتج عن الآخر. المهم أنهما كانا مرتبطين وأنني بدأت أشغل وقتي ونفسي عن انفصالي عن أمي بالقراءة. كان الأستاذ العوفير قد أقام لنا مكتبة عربية في خزانة في نهاية الصف ساهم فيها كل واحد منا بكتاب أو كتابين. وكنا نستعير الكتاب مقابل عشرين فرنكا تذهب إلى صندوق لشراء المزيد من الكتب وأعتقد أنني كنت أكثر من استفاد من تلك الخزانة. وأصبحت راوية القسم الداخلي. عندما لايكون الجو صحوا أيام الأحد كانت الحارسة وهي جزائرية اسمها بدرة، تدخلنا قسم المراجعة لا لنحفظ دروسنا ولكن لأروي القصص. كانت تجلسني في مكتبها وتجلس هي في نهاية الصف وتصغي. كانت عربيتها شأن معظم الجزائريين في ذلك الوقت ضعيفة جدا، ثم تقول لي:

- سوف تكونين معلمة.

ولكن رجلا من أسرتي كان يراني أصغي بشغف لأحاديث جدتي وأكثر عليها الأسئلة، قال لي:

- هل ستكونين صحافية؟

لم يكن يهمني ماسوف أكونه. لم يكن يهمني إلا أن أجد كتابا لم أقرأه بعد. كانت البنات في القسم الداخلي يطلبن مني المزيد من القصص وكن يتحلقن حولي في الساحة فأبدأ الحكي وتبدأ الحلقة تتكتل وتتماسك. واستهلكت خزانة الصف فأعطاني أحد أصدقاء والدي، إعجابا منه برسائلي لهذا الأخير، مجلدا مذهلا بحجم ألف ليلة وليلة، يضم مجموع أعداد مجلة سندباد، فيه قصص وصور من النوع الذي يحسن الناشر اللبناني صنعه. وعندما غادرت تلك المدرسة كنت قد قرأته وأعدت قراءته مرارا وتكرارا.

قبل ذلك جاء رمضان وصمت لأول مرة. لكن كان علي أن أدخل إلى غرفة الطعام في الفطور والغذاء لأن المشرفة كانت تمنع علينا الصيام. كانت جزائرية ضارية ومدكوكة كأنها حارسة سجن، لم تلبث أن اكتشفت أنني لاآكل فجاءتني وقالت:

- كلي!

قلت:

- صائمة.

- كيف تصومين إذا كنت أنا التي في سن أمك لا أصوم؟

- لقد بلغت هذا العام بشكل حاسم.

فقالت في استهزاء.

- أين بلغت؟ كلي! كلي وإلا سجنتك. أي بلوغ وأي بطيخ؟ أي صيام لطفلة في حالة نمو؟

قلت في نفسي: «منطق نصراني! اللّه أعلم. لو كان الصيام مضرا بطفلة في حالة نمو لما أوجبه حال البلوغ. أبوها جزائري وأمها جزائرية وتفكر بعقل نصراني.» ولكنني كنت مصممة على المقاومة إلى النهاية. ألم يكن حكم النصارى قد ولى؟

وجاءت أولى العطل المدرسية، فجاء مولاي أحمد، السائق، ليأخذنا إلى البيت. وعبرنا جسر أم الربيع في تادلة فانعرج يسارا في اتجاه القصيبة وقلنا:

- الطريق من هنا. هل نسيت؟

قال:

- لا ولكن عندي مفاجأة لكما.

ووصل إلى القصيبة فبدا الحائط الأبيض القصير وغابة الصنوبر والحصن والإدارة فبيوت الضباط الفرنسيين ثم وصل إلى بيت الحاكم فخفض السرعة ودخل فيه قلنا:

- بيت الحاكم؟

قال:

- بيتكم!

هل تذكرون البيت الذي أقام فيه الحاكم الفرنسي حفلا راقصا وذهبت مع البنات أطل من الباب لأرى كيف تكون حفلات النصارى، يوم ضربني أبي لأول مرة؟ ذاك هو بعينه. صعدت بنا السيارة وبان البيت، مهيبا، أبيض بشرفات وأروقة فرنسية، وإلى جانبه بيت صغير بسقف محدودب من القرميد الأحمر، في مدخله جدع جهنمية مسن يزحف إلى السقف حيث يتفجر أزهارا بنفسجية. وإلى جانبه الكراج. وفي مدخل البيت مرجة تظللها صفصافة ضخمة إلى جانبها حوض ماء وسط الأزهار. وفي نهاية كل ذلك هيكل خشبي تغطيه أزهار سماوية

شبيهة بالياسمين وبداخله مائدة وكراسي، يحف بذلك كله سور أبيض دونه غابة الصنوبر إياها، التي كنا نلعب فيها. وإلى اليسار، الجبل على رمية بحجر. وخلف البيت الإسطبل وغزال في مأوى يحده سياج ثم مخزن الحطب. والبيت صالونات وغرف ومطبخ. تركوا كل شيء حتى طقوم الخزف والفضة. ولم نغير نحن شيئا إلا غرفة الجلوس، حولناها إلى صالون مغربي.

قالت لي أمي إن رفات أحمد الحنصالي غسل في ذلك البيت قبل أن نسكن فيه ثم تبين خطأ هذه المعلومة. الرفات نقل بالفعل لأنه كان في مقبرة المسيحيين ولكن في الدار البيضاء وليس في القصيبة. وأحمد الحنصالي بطل وطني، كان كما تقول أمي:

- سجينا أمازيغيا في القصيبة، أقسم ألا يترك على وجه الأرض في تلك المنطقة نصرانيا واحدا ولكنه لم يكن له سلاح. وذات يوم استولى على بندقية أحد الحراس في مرصد بالجبل ولاذ بالفرار ثم بدأ ينزل ويحوم حول المركز بحثا عن نصراني يقتله حتى قتل ... كم قتل؟ ... شي ثمانية نصارى، فقام نصراني القصيبة وقال: «من دلني عليه أغنيته.» وبقي الحنصالي حتى وشى به أحد الرحل فأمسكوه وعذبوه ثم أعدموه ورموا به في حفرة. وعندما جاء الاستقلال أخرجوه وغسلوه ثم أقاموا له جنازة عظمى مشى فيها القواد والوزراء ومولاي الحسن والناس تصلي على النبي.

بقينا نقضي العطل في ذلك البيت ونعود إلى الرباط مسافة حوالي ثلاث مائة كيلومترا. ندخل حي الليمون بأشجاره القميئة ويظهر شارع فكتور هيكو فالمدرسة فتكتئب نفسي. طبعا كنت أحب المدرسة ولكن لم يكن من السهل تحمل القسم الداخلي.

كانت زوجة أحد أصدقاء والدنا رجل يعمل في محطة البنزين الواقعة في المدخل الشمالي لبني ملال قد استدعتنا أنا وأختي للغذاء. وقد كانت لوالدنا، علاقات كثيرة من هذا النوع. كان يخالط السياسيين والأعيان والحكام، ويخالط في نفس الوقت السوقة والصعاليك ويعتبر النوعين معا مصدرين أساسيين لثقافته الفكرية والفطرية. وإذن استدعتنا زوجة ذلك الرجل فذهبنا ووجدنا عندها امرأة كهلة، وجيهة بشعر مقصوص وملابس أوروبية.

وعندما رجعنا إلى المدرسة جاءتني المشرفة تقول إن هناك امرأة جاءت لزيارتي. ذهبت إلى غرفة الاستقبال فوجدت تلك المرأة. جاءت كل تلك المسافة بهدية في علبة صغيرة بداخلها ياقوتة في سلسلة من ذهب. وعندما زارنا أبي وأريتها له غضب وقال:

ـ هاتيها سأردها لها.

ثم بدأت أسمع تلك الحكاية مقرونة باسم معروف في بني ملال لامرأة سيئة السمعة. في ذلك الوقت بدأت الأمور تتدهور في أسرتنا.

أصبحنا ذات يوم فوجدنا أهلنا قد رحلوا إلى الرباط، ولكنني، على عكس أختي، بقيت في القسم الداخلي. وبدأت كلما خرجت في نهاية الأسبوع أجد أمي تشتكي حتى رجعت يوما فلم أجد والدي. تغيرت حكومة «اليسار» وذهب إلى الدار البيضاء وتركنا في الرباط. وبدأت أمي تقول:

ـ ذهب إلى المرأة السيئة السمعة.

فغادرت القسم الداخلي وتركنا بيت الدولة وسكنا شقة صغيرة تشبه الشقة التي كنا نسكنها في الدار البيضاء.

بقينا سنوات نمشي إلى المدرسة الثانوية وأبونا يرسل لنا

مصروفنا مع سائق «التحرير»، الذي كان يصل في جوف الليل عندما يأتي بالجريدة إلى الرباط، إلى أن أمسك أبونا مع مسيري وأعضاء الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في تهمة مؤامرة 1963.

كنا قد انتقلنا من ثانوية للانزهة إلى ثانوية مولاي يوسف، حيث أحدثت شعبة التعليم الأصلي. كنت متعطشة للمزيد من اللغة العربية فوجدت في تلك الشعبة مبتغاي. كنا نتلقى فيها برنامج الشعبة الأدبية في اللغة والأدب الفرنسيين والتاريخ والجغرافيا والعلوم بالفرنسية وبالعربية الفلسفة واللغة والأدب، ونزيد على ذلك ثمان ساعات في الأسبوع في أصول الدين. كان لنا أستاذ في المواد الأدبية وأستاذ في المواد الدينية، وكلاهما خريج القرويين. وما أن أنهينا الأربع سنوات حتى كنا قد أخذنا عن مولاي علي العلوي، البرلماني المعروف، برنامج القرويين في العالمية.

كان نسيج وحده في عمله ومعاملته. الأستاذ في نظر المغاربة يجب أن يتصف بالصرامة والتعالي وإقامة الحد بينه وبين التلميذ. الأستاذ هو من يبرد التلميذ في حضرته وتعرق يداه ويجف حلقه وترتجف أوصاله. الأستاذ عندنا نوع من المعلم التقليدي أو رجل السلطة، يمارس على التلميذ حكما استبداديا وهو يصب فيه معلوماته: «يرى فلان»، «يقول فلان»، «يفسر فلان»، وعلى التلميذ أن يقرأ النص بعقول كل هؤلاء إلا عقله. عليه أن يفتح أذنيه ويغلق فمه، ولذلك لايحسن المغاربة عموما التعبير الشفوي. وانظر إلى تصريحات الوزراء وتدخلات النواب وندوات الإذاعة والتلفزيون التي لاتقارن بمثيلاتها في بلاد أخرى، حيث استجواب الوزير وتدخل النائب بشكل عام متعة للعقل والسمع.

كان أستاذنا مولاي علي العلوي فلتة من فلتات ذلك النظام التلقيني العتيق. كان رجلا بيداغوجيا بالمعنى العصري للكلمة وأستاذا بالسليقة. وضع اللّه فيه خبرة التربية الحديثة ووضعه في طريقنا ليفتح أمامنا الأبواب خلال أربع سنوات على حدائق اللغة العربية وكنوزها، من خلال القرآن والسنة والفقه. فيما بعد وجدت أسلوبه العجيب ذاك في الجامعات الأمريكية، حيث تنص التربية على تنمية ملكتي الرأي والتعبير لاقوة الحافظة، وحيث يعد قول الأستاذ للطالب: «غلط!» عوض: «صحيح ولكن هناك تفسيرا آخر.» والتصحيح بالقلم الأحمر عوض قلم الرصاص الخفيف، إرهابا نفسيا يقمع التلميذ ويعقده، إذ الأستاذ معلم وليس طاغية، متواضع بعلمه للّه والعباد، مُهاب في إطار المودة لا الرهبة.

كان الأستاذ مولاي علي العلوي يسمح لنا بإبداء آرائنا مع أننا كنا ندرس كتابا منزلا، فكنا نحترمه بمودة، ونعبر عن أنفسنا في جو صحي. وكانت الألفة تصل بنا إلى حد التواطؤ معه في نهاية السنة. كنا نختم دروسنا باكرا، وكان كثير المشاغل مع حزبه فكان يقول لنا بين الفترات:

– سأخرج. لدي شغل. دعوني حتى أخرج ثم اخرجوا واحدا واحدا.

وكنا ندخل وإياه في مناقشات سياسية حامية كانت، في حد، ذاتها حصصا عفوية في التعبير وإن كانت من باب الخطابة الحزبية. كان ينعكس فيها من جانبنا خطاب «التحرير» ومصطلحاته الجاهزة مثل: «السياسة الإقطاعية»، «الديكتاتورية البوليسية»، «الحكم المطلق»، «الحكم الاستبدادي»، «الحكم البوليسي»، «النظام الإقطاعي»، «السلطات الرجعية»، «عملاء الاستعمار»، «البروليتاريا»، «الديمقراطية»، «الديماغوجية» وهلم جرا من ذلك

القاموس السياسي المعارض، الأكبر منا، والتي كنا نرددها كالببغاوات. كان ذلك طبيعيا من جانبي على الأقل بفعل التبعية للوالد، وفعل أنه كان في يد البوليس العدو الطبيعي آنذاك للمعارضة، ولكنني لا أعرف لماذا كان الآخرون ينهجون نفس النهج ويستعملون نفس اللغة. هل كان آباؤهم أيضا اتحاديين؟ أو أن «المعارضة» و «الاشتراكية» كانتا لفظتين متواترتين تسحران شباب تلك الأيام؟

كنا متسيسين صغارا، نناقش نقاش معارضات البلاد النامية. نطالب بحق الكلمة وننتشله. وعندما نأخذه نرفض أن نرده. نقول ونقول ونقول ونأبى أن نسمع. كانت ديموقراطية لنا لاعلينا على غرار الديموقراطية الأمريكية. أقول ذلك الآن طبعا وأنا أنظر إلى ذلك الصف المجنون بعين اليوم. كنا نحن المعارضين الذين نريد إحقاق الحق وإرساء الديموقراطية، ننزع من الطرف الآخر المتمثل في الأستاذ حق الكلام ونصادر رأيه ونعتقد أن الديموقراطية هي سيادة رأينا لأنه الحقيقة. ولاأذكر الآن أنني سمعت وجهة نظر الخصم أبدا.

كنت وقتها قد قمت بزيارة أولى لوالدي في سجن القنيطرة ولم أكن أفهم، مهما كانت وجهات نظر الطرف الآخر، أن يسجن المرء من أجل الاستقلال ثم يسجن عندما يأتي هذا الاستقلال. كنت متشبعة بأفكار معلبة ما في ذلك شك ولكنني كنت أعتقد أنه ليس من حق من بيده الأمر أن ينكل بخصمه مهما كان ذنبه، وأقول إن عليه في هذه الحالة أن يقول لنفسه: «لنفرض أن القوة كانت بيده هو. كانت آرائي أنا وقتها هي التي ستصبح خاطئة، فهل يصح له التنكيل بي؟ كنت أعتقد أنه ليس من حق أي إنسان أن يعذب إنسانا آخر، لاسيما إذا كان ضعيفا بين يديه.

في زيارتي الأولى لوالدي في سجن القنيطرة رأيت جانبا من

وجهه منبعجا كآنية معدنية ضربت بحديدة. ولم أدر كيف يفعل التعذيب ذلك ولم أتحدث به لأحد فبقي التساؤل معي إلى اليوم. كنت متسيسة صغيرة وغرة لم تعلمني الأيام بعد فقلت لوالدي من خلال السياجين:

- هل تريد راديو؟

فقهقه الحارس ملء شدقيه ببزّته الكحلية وقبعته وقال:

- لواه جيبي ليه التليفزيون.

فابتسم والدي لتعليقه «الفذ» في تودد الضحية، تودد مشرب بالخوف، قريب من موقفه يوم نكص في مطار آنفا أمام الشرطي وحاول أن يسكتني بحركة مضطربة من يده. لماذا جابه البوليس الفرنسي إلى ذلك الحد ولماذا الآن يخاف أصحاب البزات السلطوية إلى هذا الحد؟ صحيح أنهم (الاتحاديين) كانوا متعنتين ومندفعين وعدوانيين حتى بالكلام، وأنظر إلى كليشيهاتهم المذكورة أعلاه التي كانت تقال في بيوتهم واجتماعاتهم وتنشرها جريدتهم في واضحة النهار. كانوا شبابا منتشين بالنصر على فرنسا، مخدرين بالإيديولوجية السائدة ومتهورين، يعتقدون أن تاريخهم والاستقلال الذي «جاؤوا به» يحصنهم فكانوا يعتقدون أن لهم الحق في ممارسة هذا الاستقلال بالحكم وتطبيق أفكارهم، لاسيما والرأي العام من شباب وعمال وفلاحين ومثقفين إلى جانبهم. ولما أثبتت لهم نتيجة الانتخابات البلدية والبرلمانية أن الديموقراطية في المغرب في مخاض عسير، وأنها تحتاج لحقب يعلم اللّه مداها، فقدوا الصبر ولعلهم أعدوا تلك «المؤامرة» ولعلها لما فشلت بدأوا من أثر الانفعال والشعور بالغبن، يكيلون الشتائم للنظام وينعتونه بتلك النعوت المذكورة آنفا، ويكتبون في جريدتهم أنهم عندما قاطعوا الانتخابات البلدية «أوتي بالفرسان في ناحية مراكش ليلقوا رصاصهم في الهواء جذبا للجمهور حتى يقترب من مكاتب

الاقتراع.» وأن السلطة في ناحية آسفي «أعلنت عن بشرى وجود الشاي بالنعناع داخل مكاتب التصويت.» وأن «لهجة المنادين العموميين تبدلت فأصبحوا يقولون إن من لايصوت يدفع غرامة عشرين درهمًا.» كما بدأوا يكتبون أنهم قد همشوا، هم الذين جاؤوا بالاستقلال، في حين يؤطر الوزارات الخونة وعملاء الاستعمار ويقولون: «هذا وقد أقيمت ذكرى 20 غشت بساحة المشور كالعادة في غياب أبطال التحرير الحقيقيين ، وبمحضر عدد من الخونة والإقطاعيين وأذناب الاستعمار القديم والحديث، أولائك الخونة الذين كانت المقاومة قد حكمت عليهم باسم الشعب فلم يفلتوا من تنفيذ قرارها إلا بحماية الجيش الفرنسي والشرطة أو لمجرد الصدفة.» «إن المعاملة الشاذة والقاسية والمخالفة لكل منطق، التي يلاقيها الوطنيون المخلصون اليوم، من شأنها أن تبعث في نفوس المواطنين شكوكا تكاد تقترب من اليقين في أن السياسة الحالية استمرار لسياسة الحماية التي كانت تبغض الوطنيين، وتكيد لهم بشتى أنواع المكائد، فهذه الاعتقالات والتعسفات أليست تذكرنا بالضرورة بما كان يقوم به جوان وكيوم؟ إن محاربة الأفكار بالقوة لا تنجح ولا يمكن أن تنجح.» «حكومة الجزائر آمنت بالاشتراكية وحكومة المغرب ترتكز على الإقطاعية، ولم تمر إلاسنة على استقلال الجزائر حتى بدأ القطر الشقيق يسبق المغرب الذي استقل منذ ثمان سنوات. الجزائر حلت مشكلة أراض الاستعمار والأراضي الشاغرة لصالح الفلاحين. أممت الشركات والمقاولات والمعامل والمؤسسات ووظفت فيها المواطنين. ووضعت المخططات في الفلاحة والتصنيع ومحاربة الأمية وبناء القرى والإهتمام بالمقاومين. وأممت في إقليم أوراس مايزيد على 5000 هكتارا من أراض المعمرين، ووضعت تحت إشراف لجان التسيير الفلاحية ما يقرب من 8000 هكتارا، وأممت بعض المعامل المهمة مثل معمل الآجر ومعل

الجبص ومعمل المعكرونة (الفداوش) ومعمل خشب أوراس، وبنت ما يقرب من 4000 منزلا»، بينما انتقدوا بيانا حكوميا مغربيا حول الإصلاح الزراعي واسترجاع أراض المعمرين لأنه «تدريجي، يهم أراض الاستعمار الرسمي 270.000 هكتارا ويضمن الملكية للآخرين 700.000 هكتارا، ويدفع تعويضات حتى على أراض الاستعمار، عدة مليارات. «هذا هو الإصلاح الصوري الذي تريد حكومة المغرب أن تطبقه تحت مراقبة الحكومة الفرنسية»، «طمأنت الحكومة المغربية حكومة باريس أنه ليس هناك إصلاح يمكن أن يقلق راحة المعمرين»، «الإصلاح الزراعي المزيف»، «مخطط الحكم المطلق»، «8 سنوات لاسترجاع كل الأراضي»، «الجزائر سنتان»، «الزيادة الفادحة التي قررتها الحكومة في أثمان السكر سيكون لها الأثر الوخيم على مستوى العيش في المغرب ومستوى الأثمان، وتؤثر على سائر مرافق الاقتصاد (...) صندوق التعويضات لم يستعمل في محله. هذه الزيادة ضريبة فرضت على الطبقة الكادحة والفلاحين الصغار وذوي الأجور الضعيفة، بدل أن تفرض على ذوي الأرباح الضخمة على شكل ضريبة مباشرة».

كانت المعارضة المغربية في شهل عسل مع الجزائر، تنظر إليها بعين الرضى وترى المنجزات الثورية في أتفه ماتقوم به (تأميم معمل المعكرونة)، وكأن تأميم معمل «المعكرونة» سيعم به الازدهار على القطر الشقيق. في حين تبحث للنظام المغربي عن الهفوات لتكبرها (الزيادة في ثمن السكر) وتهولها، حتى يتخيل المرء أنها ستعود بالمغرب إلى عام المجاعة. وقس على ذلك مجالات أخرى مثل «محنة التعليم» الذي «لايستوعب إلا خمسين في المائة من عدد التلاميذ» والذي «يتخلف الكثيرون فيه في الطريق.»

وأسأل أمي:

- ماذا تحكين عن تهمة «المؤامرة ؟»
- لاشيء.
- كيف وصلك الخبر؟
- لا أعرف.
- ماذا تذكرين من تلك الحقبة؟
- لاشيء.

أليس غريبا أن تنمحي أحداث من ذلك الحجم من ذاكرتها؟ غريب حقا أنها لاتستطيع أو لاتريد أن تتذكر. ولكنني أذكر جيدا أن المحاكمة بدأت، وأننا أخذنا نتصلب في باب محكمة الاستئناف، وأن أمي بدأت تأتي في نهاية النهار بمن لا مأوى لهن من زوجات المعتقلين الوافدات من الدار البيضاء، فتنتقل أخبار المحاكمة إلى شقتنا وتستمر إلى ساعة متأخرة من الليل :

- ليس هناك مؤامرة. المآمرة على الاتحاد. عندما أمسكوهم كانوا في اجتماع لدراسة الوضع الداخلي واتخاذ موقف من الانتخابات البلدية المزيفة.

- لواه كاينة! يقولون ليست مؤامرة وإنما مواصلة تحرير.

- قال وزير الداخلية لمندوب الإذاعة والتلفزة الفرنسية: «إن ذلك الاجتماع كانت تنظم فيه الثورة في المغرب كله.»

- لذلك يسألهم البوليس عن «أعضاء المنظمة السرية وأعضاء الخلايا السرية» و «أين يجتمعون؟» و «أين السلاح؟»، «أين أخفيته؟»

- يريدون أن ينتزعوا منهم الاعتراف. لذلك يلجؤون إلى الضرب والكهرباء والماء والملح وكل الوسائل التي تعلموها من البوليس الفرنسي السري. ولذلك رفضوا دفاع المحامين الفرنسيين الأحرار حتى لايروا آثار التعذيب.

- قال لهم با حنيني: «الحكومة لاتقبل المحامين الفرنسيين في هيأة الدفاع لأنهم لايتقنون اللغة العربية.» كأنهم هم يتقنونها.

- اللغة العربية! ولماذا يرفضون المحامين العرب؟

- فرنسا ستحتج وصحافتها تنتقد هذا الموقف، حتى جريدة كبيرة في نيويورك قالت: «إن الحسن الثاني بدأ حملة من القمع ليعزل بها عن السياسة الرجال الذين حققوا استقلال المغرب واسترجعوا العرش الشرعي.»

- لو كانت فرنسا وأمريكا تقولان لقالتا لنفسيهما. ألم يزحف بالأمس فقط 300.000 زنجي على واشنطن بعدما طفح بهم كيل العنصرية والتفرقة والطغيان؟

ورحل المحامون الفرنسيون الأحرار والمحامون العرب ولم يبق إلا المحامون المغاربة، فحمي الوطيس ولمع نجم عبد الرحيم بوعبيد ومحمد التبر. وجئنا كالعادة فأبقانا البوليس داخل الحواجز الحديدية في بهو محكمة الاستئناف التي أصبحت الآن مقرا للبرلمان، في مدخل قاعة المحاكمة الكبرى التي تعرف الآن بـ «القاعة المغربية».

وعندما اشتغلت في البرلمان، وجدتني في أول يوم 29 دجنبر 1990 في ذلك المكان بعينه، ضمن من ينتظرون وفد الكونغريس الأمريكي الذي كان يقوم بجولة استطلاعية في بلدان المغرب العربي قبل حرب الخليج، فمرت الصورة بذهني. رجعت عبر ثمان وعشرين سنة بكل عنفها. كنا في ذلك اليوم البعيد عشرات من أسر المعتقلين في ذلك المكان، داخل الحواجز ولو كانت له ذاكرة لذكرني. كنت في أول الصف، واقفة بكل أدب عندما دفعني بوليسي شاب هزيل بعنف دون سبب، فصرخت ووصل صراخي إلى قاعة المحاكمة فاهتزت بالاحتجاج. قال المعتقلون للقاضي:

- انظر إلى الطريقة الوحشية التي يعامل بها البوليس أبناءنا.

كانت قرينة ملموسة ومحرجة على أنه إذا كان البوليس يفعل هذا بالأطفال داخل المحكمة، فما بالك بآبائهم في أقبية مخافره؟

لم أفهم لماذا يعتدي علي إنسان لم أفعل له شيئا وإن كان هذا الإنسان بوليسيا في بلد حديث العهد بالاستقلال. وحيرني ذلك ووجدت له في صدري ثقلا خانقا وأليما تنامي إلى حلقي. وخرجت من الحواجز وسرت مع أختي في شارع محمد الخامس في اتجاه مسجد السنة، فلاحقنا بوليسي سري حتى لحق بنا. رجل ربع، مدكوك، داكن السمرة، شعره أسود جزيز، ووجهه في ضراوة الخيش، يتكور اللحم فيه. وبدأ يمشي في مستوانا بخطى موقوتة ويحدجنا بنظرة ثقيلة مفعمة بالكراهية ثم فتح فمه المكتنز وقال لي: «يا...» كلمة لم يقلها لي أحد من قبل عمقت حيرتي وألمي وشعوري بالظلم. لم أعرف، عمري، شيئا كهذا مع بوليس فرنسا. هل هذا هو بوليسنا؟ وانضاف ذلك الوجه إلى وجه مقدم أكدال بجلبابه وطاقيته وسحنته القروية أيضا وأسنانه المهترئة، الذي لم يعطنا ورقة طلبناها منه أبدا بسبب موقف والدنا السياسي.

ووصلنا إلى مدرستنا فلدنا بها وجلسنا على الجدار القصير الموالي للبوابة، ووقف هو على الرصيف وبقيت أتبادل معه النظر من خلال الباب ومن خلال دموعي التي لم تفتر طيلة ذلك اليوم.

بعد ذلك تنامى إلى أمي قول زوجة أحد المعتقلين في باب المحكمة: «لو كنت مكانها لما وقفت له في باب المحكمة. عشيقته هنا وهي هناك.» فقلت لأمي:

- الجمل لايرى حدبته. مصيبتك أنت تقف له في باب المحكمة ومصيبتها هي تجلس معه على مقاعد الاتهام. أية ثورة وأي نضال وأية

مصلحة وطنية؟ وذاك الذي يعير المدعي العام في المحكمة بأنه ضاجع زوجته؟ الآن وقد سمعت بأذنيك لا نذهب ولاتقولي: «سيلومونني. » لأن أحدا لن يلومك.

كيف يناضل المرء لإقامة الحد على الدولة وهو لايقيمه على نفسه؟ وما الفرق بين نظام علماني ونظام «إسلامي» يحكم بقوانين الغرب ويمول ميزانيته من الضرائب المفروضة على تجارة الخمر والقمار؟ «ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولائك هم الظالمون» وفي آية أخرى «الفاسقون» وفي آية أخرى «الكافرون». لم يكن الأمر حقا ولاباطلا ولكن نزاعا على السلطة. وهي فكرة لم أصل إليها بالطبع إلا فيما بعد.

قال خالي الأصغر:

– سأذهب إليه وأخيره بين تلك المرأة وبيننا. سأقول له: «لقد أصبحت تلوكنا الألسن. » أقول له: «نكون في باب السجن ويخرجون بملابسك المتسخة ويسلمونها لها هي. وفي باب المحكمة نحن هنا وهي هناك ومعها أخوك. »

وذهب وعاد يتوارى. قلنا:

– إيوا؟

قال:

– قلت له: «لانزورك إن بقيت هي تزورك. »

– وماذا قال؟

– «لاتزوروني. »

أسقط في يدنا وكففنا عن زيارته فبدأت المقيمات عندنا يرجعن في المساء ويقلن:

- إنه يبحث عنكن بعينيه في المقاعد.

فتكسر عزمنا ورجعنا نقف داخل الحواجز. وعندما ترك السجن مر بنا في طريقه إلى الدار البيضاء.

بعد ذلك، في أوائل السبعينات عندما فك قيده الآخر وانحل ارتباطه بتلك المرأة، بدأ يزورنا وبدأت أدخل معه في نقاشات حامية، في السياسة دائما، أوميء فيها إلى أن سلوكه وسلوك بعض صحبه الشخصي زعزع ثقتي في الحزب فتقف أمي في باب الغرفة، تقول وهي تلوح بيدها:

- بركة ! سيحسب الناس أنكما تتشاجران.

فيقول لها:

- خلينا! هاذ الشي راه مزيان.

وفي 1976 قلت له بعدما رجعت من مهرجان الشباب العربي في بغداد:

- قال لي أحد أعضاء الوفد الجزائري، أستاذ مساعد في كلية الآداب بالجزائر العاصمة ومسؤول في منظمة الشباب الجزائرية اسمه إبراهيم حران، (وكان العداء متحكما بين المغرب والجزائر بسبب الصحراء) قال لي: «لقد خنت أباك. كيف تعملين في الوزارة الأولى وأبوك له سجل حافل في المعارضة؟»

فقال أبي مستنتجا بفكره المنقب:

- عرف ذلك من الاتحاديين في الوفد المغربي.

- قلت له: «لوكان الطرف الآخر يفكر بمثل هذا المنطق (منطق مقدم حينا) لما اشتغل ابن معارض في بلادنا.» قلت له: «أولا أنا مغربية ولي الحق في أن أعمل في أي جهاز مغربي إن كنت مؤهلة لذلك. أليست هذه هي روح الديموقراطية؟ ثانيا أنا الآن، صراحة،

أستغرب أن يكون والدي قد انساق وراء أفكار المعارضة تلك. لا أفهم كيف يترك المثقف المسلم المعاصر مبادئ أزلية نابعة من ذاته ومكوناته وهويته وموروثه، مبادئ يملكها، هي من وضع اللّه ويتبع مبادئ وافدة. أنا لم أخن. أنا بقيت وفية لأصالتي. هو الذي حاد وراء أفكار علمانية مجلوبة من الغرب. » ولم يقل والدي شيئا. بقي يتأمل ولم يقل شيئا.

توفي والدي في 1982 وعمره ستون عاما وما زالت تلك المسائل التي أثرتها معه ذلك اليوم بدون جواب.

الرباط، يناير 1991

حاصلة على الإجازة في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة محمد الخامس في الرباط، وجامعة تكساس في أوستين. بدأت حياتها المهنية كإذاعية، ثم صحافية في التلفزيون، وعملت في عدة دواوين وزارية، من بينها ديوان الوزير الأول.

كتبت الرواية والقصة والسيرة الذاتية وأدب الرحلة، وتُرجمت أعمالها إلى الإنجليزية والهولندية والألمانية والفرنسية. وترجمت من الإنجليزية إلى العربية سيرة محمد الخامس، والسيرة الذاتية لملكوم إكس (Malcom X).

من تأليفها :

روايات :

- عام الفيل.
- الفصل الأخير.

قصص :

- الغريب، قصص من المغرب.
- المدير، قصص أخرى من المغرب. (تحت الطبع).

سيرة ذاتية :

- رجوع إلى الطفولة.

أدب رحلة :

- بضع سنبلات خضر.
- أمريكا الوجه الآخر.

مترجمات :

- محمد الخامس، منذ اعتلائه عرش المغرب إلى يوم وفاته.
- ملكوم إكس (Malcom X)، سيرة ذاتية.

ببليوغرافيا

عبد العلي بوطيب :

1996، المغرب. عام الفيل، رواية المفارقات المغربية. سلسلة ندوات، عدد 9 (المرأة والكتابة) جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ص 65-79.

2003، المغرب. الفصل الأخير، رواية حكاية مركّبة. الثقافة المغربية، عدد 25/24، الرباط، ص 89-100.

بثينة شعبان :

1999، سوريا. سيدات المهنة. مائة عام من الرواية النسائية العربية، دار الآداب، بيروت، الفصل الثامن.

Fernea, W. Elizabeth.

1989 USA. Introduction. Year of the Elephant: A Moroccan woman's Journey toward Independence. By Leila Abouzeid. Austin: Center for Middle Eastern Studies, University of Texas. xi-xxvi.

Michael Hall

1995 Australia. Leila Abouzeid's Year of the Elephant: A Post-colonial Reading. Women a cultural review, vol 6 no 1 Oxford University Press, pp 67-79.

John Maier

1996 USA. Exchanging Strangeness: Fiction of Jane Bowles and Leila Abouzeid. Mirrors of the Maghreb, Cararan Books, Delmar, New York, pp151-185.

John Maier

1996 USA. Leila Abouzeid's, "Divorce". Desert Songs, Western images of Morocco and Moroccan images of the west, State University of New York Press, pp 197-201.

Moukhlis Salah

2003 (Fall) USA. A History of Hopes Postponed: Women's Identity and the Post Colonial State in Year of the Elephant, a Moroccan Woman's Journey Toward Independance. Research in African Literatures, Vol. 34, N°. 3 . pp 66-83.

الفهرس

الصفحة	العنوان
3	مقدمة
8	القصيبة
56	صفرو
102	الدار البيضاء
131	الرباط
149	المؤلفة
150	ببليوغرافيا

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

... وهكذا كانت كتابة سيرتي الذاتية غير واردة، لأنني فوق هذا وذاك، امرأة في مجتمع ظلت المرأة فيه، تاريخيا ولأمد طويل، مستبعدة وساكتة، فضلا عن أن تقوم بتعرية ذاتها بالكلام عن خصوصياتها. عندما كتبت أول مقال في أواخر الستينيات، لم تكن عندي الجرأة حتى على توقيعه باسمي الحقيقي. وعندما كتبت أول رواية تركت بلدة البطلة بدون اسم، لأنها بلدتي. بعبارة أخرى، كان علي أن أنتظر سنوات عديدة قبل أن أجرأ على كتابة سيرتي الذاتية. وحتى عندما فعلت ذلك لم أفعله من تلقاء نفسي.

من مقدمة المؤلفة.

شركة النشر و التوزيع المدارس
10 ، زنقة جون بوان ـ الدار البيضاء

ثمن البيع للعموم
Prix de vente au public
23,00 DH درهم